

# التربية من زاوية نظر مقاصدية

سبر للفكر التربوي للشاطبي



الزبير مهداد

الألوكة

[www.alukah.net](http://www.alukah.net)

# التربية من زاوية نظر مقاصدية

(سبر للفكر التربوي للشاطبي)

الزبير مهداد

[Mahdad.zober@gmail.com](mailto:Mahdad.zober@gmail.com)

## مقدمة

شارك كثير من الأطباء والفلاسفة والفقهاء المسلمون، عبر العصور التاريخية الإسلامية في التنظير للعملية التربوية التعليمية، وخلفوا آثارا وكتابات تتعلق بمناهج التعليم وغايات العلم ووسائل التعلم، وغير ذلك من المباحث مما يدخل فيما يسمى الآن بعلوم التربية. فالتربية نشاط اجتماعي، وكل الناس، على اختلاف تخصصاتهم، يجب أن يسهموا في بناء المنظومة التربوية.

وإذا تولى الفلاسفة والأطباء والأدباء وعلماء الاجتماع بناء هذه المنظومة، من خلال وضع المناهج والبرامج الدراسية، فقد تولى الفقهاء والمحدثون والأصوليون بالإضافة إلى ذلك، استخراج القوانين التي تحكم العملية التعليمية بمكوناتها وغاياتها ووسائلها، من الكتاب والسنة وآثار الصحابة، وشرحها حتى يستوعبها الناس ويعملوا وفقها.

فالمباحث التربوية شغلت بال الأصوليين والفقهاء، وبذلوا لأجلها الكثير من الجهد للكشف عما يضمه الإسلام من مبادئ تربوية تعليمية، وبينوا وبدقة كبيرة وإسهاب مفيد حدود العمل التربوي ومكوناته في ضوء الشريعة الإسلامية.

## أهمية البحث والحاجة إليه

يعد الشاطبي اليوم من دعائم الصحوّة الإسلامية. فمفكرو العالم الإسلامي اليوم، يحاولون أن يجعلوا الشريعة مواكبة للحياة بكافة مستجداتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. مع حفاظهم على أصول الدين وقواعده الأساسية، وحرصهم على أن يكون أخذهم من حضارة العالم الحديث لا يتصادم مع هذه الأصول والثوابت<sup>١</sup>

والاجتهاد المقاصدي يعتبر المظهر الواقعي للإسلام، لمواكبته لهموم المجتمع وإسعافه له بحلول شرعية، محققا بذلك معادلة لمصالح الخلق ومقاصد الشرع، لأنه اجتهاد في نطاق النص لاستهلاك طاقته في كافة دلالته.

كما نجد آراء الشاطبي التربوي حاضرا في كتب كثيرة منها كتاب الدكتور علي عبد الحليم محمود، وحضور هذه الآراء كان بارزا للعيان لا يحجبه شيء. رغم إغفال الكاتب . عفا الله عنه . إثبات اسم الشاطبي أو

<sup>١</sup>عاشور، مجدي. عرض كتاب الشاطبي ومقاصد الشريعة. جريدة العلم. ١٤/١٠/١٩٩٤. ملحق الفكر الإسلامي.

الإشارة إلى كتاب الموافقات ضمن المراجع والإحالات. ويمكن القول أن كتاب تربية الناشئ المسلم يمتاح من معين الموافقات ويغتنى بأفكار الشاطبي التربوية.<sup>٢</sup>

إلا أن الدراسات التي تناولت الفكر التربوي للشاطبي قليلة ونادرة، ومع ندرتها فإنها لا تفي هذا العالم المرابي حقه من البحث، وفكره من الكشف والتعريف.

لهذا تحاول هذه الدراسة أن تملأ الفراغ الملحوظ في ساحة البحث التربوي، بتناولها فكر الشاطبي التربوي بالتحليل والتعريف.

### مشكلة البحث

يعتبر الشاطبي من أئمة علم أصول الفقه، وصاحب منهج تجديدي في العقلية الإسلامية، يعود له الفضل في الكشف عن أهمية مقاصد الشريعة في أحكام العبادات والمعاملات.

وكسائر الأصوليين، تطرق في كتابه (الموافقات) لمباحث تتعلق بالعلم وأقسامه وغاياته، وحدود المعرفة البشرية، وطرق ووسائل نشر هذه المعرفة واكتسابها. وهي مباحث تصنف اليوم ضمن علوم التربية. تناول هذه المباحث في إطار أصولي يتميز بالتناسق والتكامل والشمول، وبنائها على قواعد أصولية ثابتة، شرحها وبسطها بإسهاب في فصول من كتابه القيم (الموافقات) وتدلل آراؤه على فكر ثاقب وإدراك واع لحقيقة التعليم والتربية، ووظيفتهما الاجتماعية وغاياتهما الدينية.

### هدف البحث

يهدف هذا البحث إلى:

. استخراج الآراء التربوية للشاطبي من كتابه الموافقات وتركيبها وشرحها، للتعريف بحظ الشاطبي وإسهامه في بناء نظرية تربوية إسلامية مؤسسة على القواعد الشرعية.

. عرض ما يمكن أن يفيد في تأصيل الثقافة التربوية العربية في ساحة الفكر والممارسة.

<sup>٢</sup> محمود، عبد الحليم: تربية الناشئ المسلم. المنصورة. دار الوفاء، ١٩٩٢

- استجلاء جانب من جوانب التراث الفقهي الأصولي، وهذا الاستجلاء يتحدد في ضوء مشروع قراءة وتركيب لطروحات الشاطبي التربوية.

### خطة البحث

لإنجاز هذه الدراسة، أخذنا بالمنهج الذي يعتمده الباحثون في التراث وأدبيات التربية والعلوم الإنسانية. وهو المنهج الوصفي التقريري التحليلي. وعلى ضوء هذا المنهج استخرجنا الكتابات والشواهد التربوية من كتاب الموافقات، وصنفناها ثم حللناها.

ورأينا لاعتبارات موضوعية أن يكون تصميم الدراسة في مقدمة وثلاثة فصول

في الفصل الأول تحدثنا بإيجاز عن حياة الشاطبي وعصره وجهده التجديدي وعن البعد التربوي لنظرية المقاصد.

الفصل الثاني ذكرنا فيه الخطوات التي نهجها الشاطبي في سبيل تجديد العقل المسلم وتصحيح مساره.

الفصل الثالث خصصناه للخطط التربوية التي تحقق مقاصد الشريعة.

ثم خاتمة حاولنا فيها أن نخرج باستنتاجات عامة.

## الفصل الأول

### تعريف موجز بالشاطبي وعصره

أبو اسحاق ابراهيم بن موسى الشاطبي اللخمي. فقيه كبير وأصولي شهير من أهل غرناطة توفي بها عام ١٣٨٨/٧٩٠م

أخذ عن جماعة من علماء الأندلس والمغرب ذوي اليد الطولى والإتقان الكامل للعلوم على اختلافها وتنوعها، حتى تفقه ونبغ وكان له فضل تجديد علم أصول الفقه.

ترجم له أحمد باب التنبكتي السوداني في (نيل الابتهاج) وصفه بالعلم والحفظ والتحقيق والاجتهاد، فضلا عن التقوى والورع وحسن الخلق والعفة. وذكر أنه كانت له مناقشات مختلفة مع عدد من العلماء المعاصرين له كالقبا<sup>٢</sup> والفشتالي<sup>٤</sup> وابن عباد<sup>٥</sup> في مشكلات المسائل. دلت هذه المناقشات على غزارة علمه وبعد نظره وقوة حجته .

له مصنفات عديدة ذات قيمة في علوم اللغة والأدب والفقه والأصول، منها:

. شرح الخلاصة في النحو. في أربعة أسفار.

. الإفادات والإنشادات.

. الاعتصام.

. الموافقات في أصول الشريعة.

تعلم الشاطبي في غرناطة وبها مكث حتى وفاته. وعاش فيها أهم فترات الدولة النصرانية التي حققت بعض الانتصارات العسكرية على الإسبان واسترجعت منهم بعض الثغور.

<sup>٢</sup> أحمد بن قاسم القبا<sup>٢</sup>. الشيخ الفقيه المحقق الحافظ توفي عام ٧٧٩ هـ . له شرح حسن على قواعد القاضي عياض، وشرح على بيوع بن جماعة التونسي. (أحمد بن قنفذ: شرف الطالب في أسنى المطالب)

<sup>٤</sup> محمد بن عبد الملك الفشتالي. قاضي الجماعة بفاس من شيوخ القبا<sup>٢</sup>، كان له مجلس جليل في العلم. توفي عام ٧٧٧ هـ أو ٧٧٩، (أحمد بن قنفذ: شرف الطالب في أسنى المطالب)

<sup>٥</sup> ابن عباد النفزي محمد (فتحا) بن ابراهيم بن عبد الله بن مالك (بن عباد) ولد برندة وتوفي بفاس عام ٧٩٢ هـ/١٣٩٠ م. خلف مصنفات كثيرة في الفقه والتصوف. (عبد العزيز بن عبد الله. الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية: ٤٠/٢ )

وخلال هذه الفترة أيضا كانت غرناطة محط رحال كثير من المسلمين الأندلسيين الذين سقطت مدتهم في يد الاسبان، أدت هذه الهجرات إلى كثافة سكانية كبيرة، وكان من نتائجها تنوع الأنشطة المهنية والتجارية التي تلبي حاجات السكان المتزايدة. وصاحب ذلك ازدهار حلقات العلم وظهور طوائف ومذاهب دينية وفكرية مستحدثة. كما ظهرت بوادر الترف في الحياة الغرناطية التي انعكست آثارها على أزياء المسلمين وحياتهم ومآكلهم.

لكن هذه الأحوال لم يكتب لها الدوام، إذ سرعان ما ظهرت بوادر الأزمة بعد عجز بيت مال الدولة عن تحمل نفقات المواجهة العسكرية، مما حتم فرض خراج على الناس لتغطية هذه النفقات التي منها بناء أسوار الحصون والمدن فأثر ذلك على حياة الناس وأحوالهم الاجتماعية والمالية، وكان لزاما عليهم التضحية بامتيازات كثيرة<sup>٦</sup>

### الشاطبي: المصلح المجدد

أهم ما تميز به هذا العصر هو التردد المذهبي وانتشار الفرق والطرق الصوفية وكثرة البدع والفتن. وقام علماء المغرب والأندلس بمحاولات الإصلاح والتجديد، وكان الشاطبي أحد أهم رواد الإصلاح الديني والفكري بفضل ما تميز به من نظر شمولي واجتهاد.

وفي كتابه الاعتصام تصدى لكثير من مظاهر الانحراف العقائدي، فتحدث عن البدع وأنواعها وأصحابها وميز بين المحدثات المتعلقة بشؤون الدين وتلك المتعلقة بشؤون الدنيا، وفرق بين الابتداع والاجتهاد والالتزام بالصرط المستقيم، معتمدا في ذلك على منهجية أصولية متميزة، فصل الحديث عنها في كتابه الموافقات<sup>٧</sup> ووفق المنهجية نفسها جدد الشاطبي علم أصول الفقه. هذا العلم الذي يعتبر بمثابة القانون العقلي والفكري للمسلمين في المجال الفقهي بسعته وشموله وقواعده. فهو دستور الفقهاء في مجال عملهم.

يقول الأستاذ عبد القادر العافية عن فتاوى الشاطبي أنها تتجه إلى إصلاح جذري يستهدف الحفاظ على الثوابت الأساسية للشريعة الإسلامية، فهي حوار مع العلماء والفقهاء لتصحيح بعض القضايا الاجتهادية

<sup>٦</sup> العافية، عبد القادر. الفقيه الأصولي إبراهيم أبو إسحاق الشاطبي. مجلة دعوة الحق. الرباط. عدد ٢٩٧. (١٤١٣) ص ٤٤

<sup>٧</sup> بادو، عبد الجليل. منهج التربية والتعليم عند الإمام الشاطبي. مجلة المري. تطوان عدد ٤ (١٩٩٤) ص ٦

أو لتقويم اعوجاج أو انتقاد أنواع السلوك حاد به أصحابه عن الجادة، أو تذكير بالمقاصد الأساسية للشريعة الإسلامية<sup>٨</sup>

كانت فتاويه تستهدف الإصلاح الجذري، إذ كان يرى أن مجتمعه في أمس الحاجة إليه، فكان يستقيها من الأصول الشرعية مسترشداً بمقاصد الشريعة وأهدافها وغاياتها. فلم يكن يقنع بكل تأويل أو اجتهاد غير سليم أو فهم قاصر. وهي تترجم بصدق منهجه في إدراك مقاصد الشريعة وما توحى به نصوصها من دلالات وأهداف، وهو ما تحدث عنه بتفصيل في كتابه الموافقات الذي وضع فيه أسس المنهج في الفتوى وحدد شروط الإفتاء والاجتهاد<sup>٩</sup>

إلا أن الرد على أصحاب البدع في الأندلس لم يكن سهلاً، فقد عانى الشاطبي في سبيل ذلك كثيراً، وتعرض للمحن والمشقة ووجهت إليه تهم شتى، يقول عنها ( تارة نسبت إلي الرفض ونقض الصحابة ... وتارة أضيف إلي القول بجواز القيام على الأئمة. وتارة أحمل على التزام الحرج والتنطع في الدين، وإنما حملهم على ذلك إني التزمت في الفتيا الحمل على مشهور المذهب، لا أتعدها، وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه ... وتارة ينسب إلي معاداة أولياء الله وسبب ذلك إني عادت بعض المبتدعين المخالفين للسنة المنتصبين بزعمهم لهداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم إلى الصوفية )<sup>١٠</sup>

فالشاطبي يصور بهذا الكلام ما كان يعانيه من خصومه الذين تفتنوا في إصاق التهم به، وفي إذابته لإزاحته من الساحة العلمية حتى يصفو لهم الجو ولا يحال دون انسياقهم وراء أهوائهم وشهواتهم.

إلا أنه في الوقت نفسه حظي هذا العالم المصلح بتقدير وتنويه علماء عصره ومن جاء بعدهم، فشكروا له ما التزم به من الصراحة في القول والبعد عن المداينة، وذكروا مناقبه ونوهوا بجهوده الخادمة للسنة والفقهاء ومحاربة البدع، حتى لقبوه بناصر السنة<sup>١١</sup>

<sup>٨</sup> العافية، عبد القادر. الفقيه الأصولي إبراهيم أبو إسحاق الشاطبي. مجلة دعوة الحق. الرباط. عدد ٢٩٧. (١٤١٣) ص ٤٥

<sup>٩</sup> العافية، عبد القادر. الفقيه الأصولي إبراهيم أبو إسحاق الشاطبي. مجلة دعوة الحق. الرباط. عدد ٢٩٧. (١٤١٣) ص ٤٦

<sup>١٠</sup> العافية، عبد القادر. الفقيه الأصولي إبراهيم أبو إسحاق الشاطبي. مجلة دعوة الحق. الرباط. عدد ٢٩٧. (١٤١٣) المرجع نفسه

<sup>١١</sup> العافية، عبد القادر. الفقيه الأصولي إبراهيم أبو إسحاق الشاطبي. مجلة دعوة الحق. الرباط. عدد ٢٩٧. (١٤١٣) ص ٥٠



والشاطبي لم يكن مصلحا اجتماعيا فحسب. بل هو صاحب اتجاه تجديدي في المنهج العقلي، كما أنه لا ينفرد بمجده التجديدي في تاريخ المغرب والأندلس. بل إن الاتجاه التجديدي الذي عرفه المغرب والأندلس، منذ أوائل القرن الخامس الهجري، كان من أقطابه إلى جانب الشاطبي ابن حزم وابن باجة وابن رشد وابن خلدون وآخرون غيرهم. ووحدة الفكر بين هؤلاء تتجلى في توظيف جملة من المبادئ والمفاهيم والإجراءات المعرفية التي كانت تؤسس التفكير العملي البرهاني المعتمد على الاستنتاج والاستقراء بدل قياس الغائب على الشاهد، واعتماد المقاصد بدل دلالات الألفاظ، والقول بالسببية واطراد الحوادث بدل القول بالتجوز والعادة<sup>١٢</sup>

جهد الشاطبي التجديدي في ميدان الأصول لم يتجه إلى المحتوى، وإنما انصب على المنهج، أي الطريقة التي اعتمدها الأصوليون منذ الشافعي. لم يقف الشاطبي عند المشاكل ولم يكتف بتقديم فتاوى تبين حكم الشرع فيما يعرض له من الأمور والمستجدات، والنوازل بل وجه خطابه في الكتاب للعلماء والفقهاء وبصفة خاصة المتنورين المجتهدين المتحررين من التعصب للمذهب<sup>١٣</sup> الباحثين عن حقائق أكمل العلوم الطالبين لأسنى نتائج العلوم، المتعطشين إلى أحلى موارد الفهم<sup>١٤</sup> عارضا عليهم طريقة جديدة في التفكير يستطيع العلماء على ضوئها تجاوز المنهجية التقليدية في الأصول والتي تقوم على التفسير والاستنباط<sup>١٥</sup>

فبتجديد المنهج يتجدد الفكر والعقلية، وقد كان المنهج الأصولي عند السابقين يقوم على الاستنباط والقياس اللذين يعتمدان على التأويل والظن، واجتهد الشاطبي في استبداله بمنهج يقوم على الاستنتاج والاستقراء المستندين إلى أسس العقل، تماما كما هو الشأن في الرياضيات الحديثة<sup>١٦</sup>

فإذا كان الفضل في وضع قواعد علم أصول الفقه يعود إلى الشافعي وتلاميذه، فإن الشاطبي اجتهد في تأصيل هذه الأصول بإعادة بناء هذا العلم على القطع بدل الظن. بعدما كان الأصوليون منذ الشافعي يعتمدون في بناء الأحكام على استنباط المعاني من النصوص أو قياس ما ليس فيه نص على ما فيه نص، وكانوا يرددون بأن الشريعة في مجملها تقوم على الظن. وكذلك القياس يقوم على العلة المفترض أنها مقصودة بالحكم.

<sup>١٢</sup> الجابري، محمد عابد. بنية العقل العربي. الدار البيضاء. المركز الثقافي العربي ١٩٩١ ص ٥٥٨

<sup>١٣</sup> الموافقات ج ١ ص ٨٧

<sup>١٤</sup> الموافقات ج ١ ص ٢٢

<sup>١٥</sup> بادو، عبد الجليل. منهج التربية والتعليم عند الإمام الشاطبي. مجلة المري. تطوان عدد ٤ (١٩٩٤) ص ٧

<sup>١٦</sup> بادو، عبد الجليل. منهج التربية والتعليم عند الإمام الشاطبي. مجلة المري. تطوان عدد ٤ (١٩٩٤) ص ٨

أما الشاطبي فقد أثبت عكس ذلك وبرهن أن الأصول تقوم على القطع، والدليل على قطعيتها أنها راجعة إلى كليات الشريعة. وما كان كذلك فهو قطعي. والتجديد المنهجي الذي اهتدى إليه الشاطبي يتمثل في ثلاث خطوات أساسية:

١. الاستنتاج أو القياس الجامع. وتمثل هذه الخطوة المنهجية في أن كل دليل شرعي فمبني على مقدمتين:

أ. نقلية، تثبت بالنقل عن الشارع نقلاً صحيحاً.

ب. نظرية، تثبت بضرورة الحس أو بضرورة العقل أو النظر والاستدلال.

٢. الاستقراء، كخطوة لاستخلاص كليات الشريعة التي هي كليات استقرائية.

٣. قصد الشارع، لأن الكليات الشرعية الثابتة بالاستقراء يؤسسها قصد الشارع<sup>١٧</sup> فالشارع لم يكلف العباد بما كلفهم به من واجبات دون مقاصد معينة. فقد اتفقت الأمة على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمسة.

<sup>١٧</sup>العلمي، عبد القادر. أصول الفقه والتجديد عند الشاطبي. جريدة العلم (الرباط) ٢٥ ربيع الآخر ١٤١٣. ملحق الفكر

## مقاصد الشريعة والتربية

يطلق لفظ الشريعة على ما شرعه الله لعباده من الدين. وهو الذي ترشد إليه الآية الكريمة {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} (مائدة/ ٥١) أي شريعة تتبعونها وطريقا واضحا تسلكونه.

ويستعمل العلماء لفظ الشريعة للدلالة على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عند الله سواء لبيان العقيدة الإسلامية أو ما نزل لإتمام مكارم الأخلاق، وما شرع لتدبير أمور الناس في الدنيا وإصلاح المعاش والمجتمع البشري.

فالشريعة الإسلامية إذن هي القرآن الكريم والسنة المطهرة<sup>١٨</sup> وهي تضع للمكلفين حدودا في أفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم لا يجوز للعقل أن يتعداها<sup>١٩</sup>

لأحكام الشريعة توجهات، بينها الشاطبي في كتابه الموافقات، كما تكلم عنها كثير من الأصوليين والفقهاء. ومن هذه التوجهات:

- توجه تربوي يقوم على إقرار عبودية الإنسان لله عز وجل (فالشرع إنما جاء بالتعبيد<sup>٢٠</sup>) وهو ما ترشد إليه الآية الكريمة {وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون} (الذاريات/ ٥٦) وهذا التوجه يتضمن تربية الفرد حتى يكون منبع خير لجماعته، يجسد بسلوكه وفكره معاني العبودية الشاملة من العلم والإيمان والعمل.

- التوجه الثاني ضمان مصلحة العباد، يقول الشاطبي (أيضا توجد المصلحة فثم شرع الله) وهذا يوجب خدمة هذه المصالح وحمايتها والحفاظ عليها. لأن المصالح مبنية على حفظ الضروريات الخمسة<sup>٢١</sup>

- التوجه الثالث إقرار الحاكمية لله عز وجل، فالشارع هو الله. وهو ضامن العدالة وحامي المصالح وسيد العباد المتحكم فيهم<sup>٢٢</sup>.

<sup>١٨</sup>عباس، محمد حسن. الفقه الإسلامي آفاهه وتطوره. مكة المكرمة. رابطة العالم الإسلامي. ١٤١٤. (سلسلة دعوة الحق: ١٠)

ص ٨

<sup>١٩</sup>الموافقات ج ١ ص ٨٨

<sup>٢٠</sup>الموافقات ج ١ ص ٦١

<sup>٢١</sup>الموافقات ج ٢ ص ١٧

وفي تعريف المقاصد يستند خوجة على شطري التعريف الواردين في الموافقات وهما:

١. إن الشارع قد قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدينية، وذلك على وجه لا يختل لها به نظام، لا بحسب الكل ولا بحسب الجزء<sup>٢٣</sup>

٢. القصد الشرعي من وضع الشريعة، إخراج المكلف من داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبد الله اضطرارا<sup>٢٤</sup>

ويقول خوجة: مقاصد الشريعة هي إقامة مصالح المكلفين الدينية والأخروية على نظام يكونون فيه عبادا لله اختيارا كما هم اضطرارا<sup>٢٥</sup>

وإقامة مصالح المكلفين لا تنتهي بانتهاء مرحلة الطفولة، فترة تأثير الوسائل والمؤسسات التربوية عادة، بل هي ممتدة من الميلاد أو قبله إلى الوفاة أو بعدها، باعتبار رعاية الحامل وتزويد المسلم بما يواجه به امتحان الملائكة في قبره.

ومراعاة مقاصد الشريعة في تفسير النصوص كانت بمثابة سياج يمنع من الزلل في فهم هذه النصوص ويحول دون اتباع الهوى في ذلك. لأن دلالة ألفاظ النصوص على معانيها قد تحمل عدة وجوه، والذي يرجح واحدا من هذه الوجوه هو الوقوف على مقصد الشارع إذ أن الأخذ بوجه يتنافى مع مقصد الشارع إنما هو باطل<sup>٢٦</sup>

من هنا تأتي أهمية التربية المقاصدية التي هي (توجيه سلوك المكلف لإخراجه من داعية هواه ليكون عبدا لله اختيارا كما هو اضطرارا، بحث السلوكات العقلية والانفعالية والبدنية التي تحقق مصالحه في العاجل والآجل)

<sup>٢٢</sup> حمود، محمد. دور الاجتهاد في مواكبة المستجدات بالتطرق لمقاصد الشريعة. مجلة دعوة الحق. الرباط. عدد ٢٨٠ (١٤١١)

ص ٨٠

<sup>٢٣</sup> الموافقات ج ٢ ص ٣٧

<sup>٢٤</sup> الموافقات ج ٢ ص ١٦٨

<sup>٢٥</sup> خوجة، يوسف. حمادي العبيدي وكتابه الشاطي ومقاصد الشريعة. جريدة العلم (الرباط) ٤/١١/١٩٩٤. ملحق الفكر

الإسلامي. ص ٦

<sup>٢٦</sup> عباس، محمد حسام. الفقه الإسلامي آفاقه وتطوره. مكة المكرمة. رابطة العالم الإسلامي. ١٤١٤. (سلسلة دعوة الحق: ١٠)

ص ٨٤

وأهداف هذه التربية لا تخضع للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل تحددها الشريعة وتستنبط من مقاصدها.

يقول الاستاذ بنحمزة شخصية المقصد التربوي الإسلامي متميزة أصيلة. لأن القصد متمم بالاستقرار والمرونة في نفس الوقت:

. والاستقرار فيه نابع من كون التربية الإسلامية جزءاً مما أوحى به الله عز وجل إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، أوحاها موضوعاً وهدفاً.

- ومرورتها من مرونة الاجتهاد المقاصدي الذي يواكب الحياة بكافة مستجداتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويجعل المسلمين في مستوى مواجهة هذه المستجدات والتعامل معها<sup>٢٧</sup>

وآراء الشاطبي التربوية التي يمكن استخلاصها من كتابه الموافقات تستقى حتماً من الأصول الإسلامية والنصوص الدينية المرجعية: القرآن الكريم والسنة المطهرة وآثار الصحابة. فهذه الأصول تعالج الوضع الذي يعيشه الانسان في دنياه وترفعه إلى الصورة التي يريدتها الله.

يتبين لنا من كلام الشاطبي أن الهدف من تكاليف الشريعة يتمحور حول صيانة مجموعة من المقاصد المرتبطة بالحياة الاجتماعية والفردية للإنسان وحفظها سواء منها الضرورية أو الحاجة أو التحسينية<sup>٢٨</sup>

وصيانة هذه المقاصد يكون بإقامة أركانها وتثبيت قواعدها، وبرعاية الشروط التي تحمي كيانها وتحافظ عليه في صفة السلامة والكمال والتوازن، وبدء الاختلال الواقع أو المتوقع فيها بالحيلولة دون ما من شأنه أن يعرضها للتلف والضعف والنقصان.

ويستفاد من كل ذلك أن حفظ تلك المقاصد يتم من خلال تشبع الأفراد بنظام من القيم يتصف بالكمال. ومن خصائص الكمال أن تكون تلك القيم ملائمة لشغاف الفطرة التي فطر الله الناس عليها

<sup>٢٧</sup> بنحمزة مصطفى. مقاصد التربية الإسلامية. ضمن أعمال الدورة الثانية للجامعة الصيفية للصحة الإسلامية. الرباط. وزارة الأوقاف ١٩٩٤. ص ١٩٦ وأيضاً شكري، فريد. طرق إثبات المقاصد الشرعية. بجريدة العلم. (الرباط) ١٣/٣/١٩٩٥. ملحق الفكر الإسلامي. ص ٥

<sup>٢٨</sup> بنمسعود، عبد المجيد. تحرك القيم حول الكليات الخمس، مجلة الفيصل (الرياض) عدد ٢٣٠ (١٤١٦) ص ٢٨

لصيقة بما لا تنفك عنها وهذا النظام القيمي الإسلامي هو قوام النظام التربوي الإسلامي ويتشكل منه النظام الاجتماعي ويقوم على أساس راسخ من الإيمان بالله والإقرار بالعبودية الخالصة له<sup>٢٩</sup>

والقيم التربوية الإسلامية من تعاون وتكافل وصدق في القول وإخلاص في العمل واحترام لكرامة الإنسان وغيرها، لا يمكن أن تينع وتسود إلا مع الاعتقاد الصادق في الله ومراقبته بصفة دائمة، وهو الشرط الكفيل بضمان الحفاظ على المقاصد التي رمت إليها الشريعة الإسلامية.

والقيم الإسلامية ترتبط بصلة وثيقة مع الكليات الخمس، وتمتد لتنسج خيوطها مع دائرتين أخريين هما دائرة الحاجيات والتحسينيات، فهذه القيم تنشر أجنحتها على سلوك الإنسان في جوانبه الدقيقة لتضمن لها الارتقاء والتدرج في مستويات الكمال والذوق الرفيع<sup>٣٠</sup>.

والشاطبي صاحب الاجتهاد المقاصدي، ورائد نظرية المقاصد الأصولية ذات البعد التربوي، تقوم منهجيته الأصولية على اعتبار مقاصد الشريعة التي هي إقامة مصالح المكلفين الدنيوية والأخروية على نظام يكونون فيه عبادا لله اختيارا كما هم اضطرارا .

ووسيلة الشريعة إلى إقامة هذه المصالح وعلى هذا النظام هي التربية المقاصدية، التي ترشد المكلف وتوجهه، وتضبط سلوكه وتزوده بالمعايير القارة للتمييز بين المصالح والمفاسد والحفاظ على التوازن والنظام الكوني .

ويضيف الشاطبي بعد تعريف المقاصد (إن المكلف حين يفهم مراد الشرع من قيام أحوال الدنيا ، يسلك في حياته مسلكا يتحدد بمقتضى هذه المعرفة من الإقدام على العمل أو تركه)<sup>٣١</sup>

ومن وسائل تحقيق التربية المقاصدية أهدافها:

. توعية المكلف وتبصيره بحقيقة الوجود، بالخالق والمخلوقات وما بينها من علاقة.

- رسم منهج للسلوك الفردي والجماعي الكفيل بتحقيق المصالح ورعايتها، هاديا إلى الأسلوب الأصح في الممارسة والتطبيق والتفكير.

<sup>٢٩</sup> بنمسعود، عبد المجيد. تحرك القيم حول الكليات الخمس، مجلة الفيصل (الرياض) عدد ٢٣٠ (١٤١٦) ص ٢٨

<sup>٣٠</sup> بنمسعود، عبد المجيد. تحرك القيم حول الكليات الخمس، مجلة الفيصل (الرياض) عدد ٢٣٠ (١٤١٦) ص ٢٨

<sup>٣١</sup> الموافقات ج ٢ ص ٢٠٢

فالتربية عملية حث أو تغيير أو إبقاء على سلوكيات وأعمال عقلية أو انفعالية أو عاطفية أو بدنية. وحين تهتدي بالشريعة وتخضع لضوابطها وتسترشد بأهدافها، ينمحي كل ما يمكن أن يبدو من عوائق تقف في وجه بناء الإنسان أو تحول دون توحيد جهوده وتكامل قواه وتحقيق كماله.

### أهمية وشمولية العبادة

يتميز الشاطبي بنظرته الشمولية ويدافع عنها، فالنظرة التجزيئية إلى الموضوعات خطأ منهجي، لأنها تحجب الحقيقة ولا تساعد على الوصول إلى معرفة كنهها، ولا تتفق مع شمولية الدين الإسلامي<sup>٣٢</sup>

ونظرية المقاصد تعكس بوضوح هذه الشمولية. فالشاطبي يرى أن غاية المقاصد هي إصلاح الإنسان وسعادته في الدنيا بإبعاد المفساد والشرور عنه وسعادته في الآخرة بنيل رضوان الله عز وجل.

فغاية التربية المقاصدية يجب أن تستنبط من المقاصد وتجسد مطامح واختيارات الدين الإسلامي، وترتبط بقيمه ومبادئه، وتسهم في إصلاح الإنسان وتحقيق سعادته في الدارين.

( إن الشرع قد جاء ببيان ما تصلح به أحوال العبد في الدنيا والآخرة)<sup>٣٣</sup> في حياته الفردية والجماعية. تناول الشاطبي هذه القاعدة الفقهية بالشرح والتحليل في مواضع كثيرة من كتابه مستدلاً بالقرآن الكريم والسنة الشريفة وآثار الصحابة، وعلى ضوءها بين أحكام التربية والتعليم والمعرفة.

ذكرنا فيما سبق أن من التوجهات التربوية للشريعة إقرار عبودية الإنسان لله عز وجل وشرح الشاطبي كيف أن الشرع قد جاء بالتعبّد، وجعل العبادة حكمة الإيجاد للناس، والعبادات التي فرضت على المسلمين تتضمن أحكاماً خلقية وآداباً وقواعد للسلوك. والعلم أهم وسائل هذه العبادة، به يفهم المكلف مقاصد الشرع فيما جاء به. فالله يعبد بالعلم والعلم ضرب من ضروب العبادة، كما أن العبادة في الإسلام لا يقتصر معناها على الصلاة والصيام والحج، ولا تعني الانقطاع عن العمل والتجرد عن الدنيا، فالمكلف خلق ليعبد الله على هذه الأرض وفيها. يقول الشاطبي (إن البناء على المقاصد الأصلية تصير تصرفات المكلف كلها عبادات كانت من قبيل العبادات أو العادات، لأن المكلف إذا فهم مراد الشرع من قيام أحوال الدنيا

<sup>٣٢</sup> عاشور، مجدي. عرض كتاب الشاطبي ومقاصد الشريعة. جريدة العلم. ١٤/١٠/١٩٩٤. ملحق الفكر الإسلامي. ص ٥

<sup>٣٣</sup> الموافقات ج ١ ص ٥٠

أخذ في العمل على مقتضى ما فهم، إنما يعمل من حيث طلب منه العمل وسيترك إذا طلب منه الترك. فهو أبدا في إعانة الخلق على ما هم عليه من إقامة المصالح باليد واللسان والقلب)<sup>٣٤</sup>

والشارع لم يكلف الناس ما كلفهم به من واجبات في العبادات والمعاملات من دون قصد. فقد اتفقت الأمة بل سائر الأمم على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الحقوق الخمسة الدين والنفوس والمال والعقل والنسل. وبرعاية هذه الحقوق تتم عمارة الأرض وحفظ نظام التعايش فيها واستمرار صلاحها بصالح المستخلفين فيها، وفي قيامهم بما كلفوا به حفظ نظام التعايش وضمنان صلاح الدنيا. والله لا يستفيد من كل ذلك، إنما الإنسان هو المستفيد الأول والأخير.

إن صلاح الدين والدنيا غاية تتفرع عنها ثلاثة أهداف:

١. تنشئة أجيال مسلمة مؤمنة مستنيرة، تعبد الله وتستعينه وتسلك مهتدية بالصراط المستقيم الذي نهجه في حياته رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة البررة رضوان الله عليهم، حتى تنعم بالجنة التي أعدها الله.

٢. تعهد الذات البشرية عقلا ودينا حتى تحقق كمالها وتسمو بنفسها. والعلم أحد أهم وسائل تكميل الذات وترقية الإنسان بإخراجه من داعية هواه وتقييد أعماله بمقتضى أحكام العلم، فالعلم حاكم.

٣. تعمير الحياة على الأرض وتنميتها وحمايتها. وهو واجب يتحقق بالعمل الانتاجي والاستثمار وحماية الحياة بدفع ما يتهدها.

إن غاية تكليف الإنسان هي صلاح أمره في الدنيا والآخرة. وصلاح أمره في الدنيا يعني استقامة أحواله فيها لتستقيم له أمور الآخرة. وأهمية هذه الغاية تأتي لإقامة التوازن بين أمور الدنيا وأمور الآخرة والحفاظ عليه. لذلك أوجبت الشريعة على الإنسان أن يتعلم ما ينفعه في دينه أولا ثم في دنياه. وكل علم لا يفيد المرء في دينه أو دنياه فالاهتمام به باطل وغير جائز.

<sup>٣٤</sup>الموافقات ج ٢ ص ٢٠٢



## الفصل الثاني

### تجديد العقل المسلم

كان الشاطبي صاحب اتجاه تجديدي في المنهج العقلي الأصولي، جهد الشاطبي التجديدي في ميدان الأصول لم يتجه إلى المحتوى، وإنما انصب على المنهج، أي الطريقة التي يتعامل بها العقل مع ما يواجهه من قضايا.

والتجديد قصد به الشاطبي إعادة العقل المسلم إلى حاله الذي كان عليه خلال العهود الإسلامية المشهود لها بالفضل، عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، حيث كانت العقلية الإسلامية نقية من الأدران والخرافات، عقلية مجتهدة تحكم الشريعة ولا تخضع لأهواء النفس.

كانت هذه العقول حديثة عهد بالإسلام الذي رفع عنها الحجر والوصاية وأطلقها من قيودها، وحرصها على التفكير والتأمل. فتحملت عقول المسلمين هذه الأمانة بمجدارة وتفجرت بفضل ذلك ينابيع العلوم والفنون والإدراك والاجتهاد الذي يعتبر في الإسلام إطلاقاً لقوى العقل.

والشاطبي المرئي حدد غاية التربية في تثبيت الإيمان في نفس المكلف. الإيمان الذي يحرك السلوك ويؤدي إلى العمل الموحد لله عز وجل، في كافة أشكال هذا العمل ومظاهره، سواء كان في نطاق العبادات أو المعاملات أو عمل العقل والجوارح. والإيمان هو اعتقاد عقلي مؤثر في وجدان المؤمن وعواطفه وسلوكه. لكن من أشد الأخطار التي يواجهها هو تسرب الخرافات والفهوم الخاطئة عن الدين إلى العقل. ثم أن التعب والتكليف شرطهما العقل لهذا كانت عناية الشاطبي كبيرة بالعقل، وجه اهتمامه إلى العقل المسلم وعنى بإيقاظه وانتهاض قدراته واستعداداته.

والتعامل مع العقل المسلم لإصلاحه يتطلب التصدي لكل العوامل المؤثرة فيه كالعقيدة والثقافة والخرافات وغير ذلك، فكلها عوامل لها أهميتها في تشكيل العقل وتحديد مكوناته<sup>٣٥</sup>

كما أن للعقل معان متعددة تفيد الإدراك والتمييز، وهما عمليتان تتطلبان تدخل مهارات عقلية أخرى كالذكاء والتفكير والتذكر. ومدلول العقل عند الشاطبي هو الاستدلال العلمي الذي يستند إلى منطلقات أولية تستنتج منها استنتاجات منسجمة معها خالية من التناقض<sup>٣٦</sup> وهذا المدلول ينسجم مع مدلول

<sup>٣٥</sup> طريي، عبد الرحمن. العقل العربي وإعادة التشكيل. الدوحة. وزارة الأوقاف. ١٤١٣. (سلسلة كتاب الأمة: ٣٥) ص ٣١

<sup>٣٦</sup> بادو، عبد الجليل. منهج التربية والتعليم عند الإمام الشاطبي. مجلة المري. تطوان عدد ٤ (١٩٩٤) ص ٧

العقلانية التي هي موقف فكري وسلوكي تجاه القضايا يتمثل في اعتبار العقل هو القيمة العليا والمعيار الأساس<sup>٣٧</sup> وهذا العقل يبقى محكوماً بالشرعية لا يجوز له أن يتعدى الحدود التي وضعتها للمكلفين.

تناول الشاطبي . كسائر الأصوليين . قضية العقل وعلاقته التبعية بالشرعية وأوامرها، ودوره في توجيه السلوك التوجيه السليم كنتيجة من نتائج هذا الارتباط بالشرعية التي تضع له الحدود التي يتعين عليه مراعاتها وعدم تخطيها<sup>٣٨</sup>

واستناداً على الشرعية وضع الشاطبي مخططاً للنهوض بالعقل المسلم، يتضمن هذا المخطط الخطوات التالية:

. إحاطة العقل بمقتضيات الشرعية الإسلامية وحدودها ومبادئها ومقاصدها.

- تنمية القدرة على التحليل والتمييز والنقد والنظر الشمولي لضمان حسن استيعاب الشرعية وسد الباب أمام ما يمكن أن يتسرب إلى العقل من خرافات وأوهام وتصحيح الفهوم الخاطئة السائدة عن هذه الشرعية.

. التصدي للمناهج المدرسية بكل مكوناتها المعرفية والمنهجية لأهميتها في التأثير على العقل ونموه وتشكيله. لإعداد وبناء خطة تعليمية محكمة تنبني على تصنيف دقيق للعلوم يسترشد بالشرعية. وتضمينه علوماً يتحقق فيها مبدأ التوحيد والعبودية، واختيار طرق تعليم تضمن تحقيق هذه الأهداف والمقاصد.

- الدعوة إلى الاجتهاد والنهوض به وتقنينه وتحديد شروطه. حتى يظل مواكباً للحياة الإسلامية المتجددة والمتطورة، محافظاً على الثوابت الإسلامية القارة.

يبدو جلياً من كتابات الشاطبي عنايته الخاصة والفائقة بالعقل وبمنهج المعرفة، فالشاطبي مجدد منهج، مجدد فكر، مجدد عقلية أصولية. وجهده الإصلاحية انصب أساساً على المنهج، أي الطريقة التي اعتمدها الأصوليون منذ الشافعي.

<sup>٣٧</sup> طريزي، عبد الرحمن. العقل العربي وإعادة التشكيل. الدوحة. وزارة الأوقاف. ١٤١٣. (سلسلة كتاب الأمة: ٣٥) ص ٣٤

<sup>٣٨</sup> الموافقات ج ١ ص ٨٨

## تصحيح الفهم الخاطئة.

### بناء المعقولة

كانت العقلية الفقهية عامة والمنهج الأصولي خاصة منذ الشافعي يقومان على الاستنباط والقياس اللذين يعتمدان على التأويل والظن، مما يفقد هذا المنهج المصدقية والأسس العلمية، ويجعل النتائج التي يتوصل إليها موضع شك وظنون. بينما العلم الحقيقي هو القطعي الذي تكون نتائجه لا مجال للشك فيها<sup>٣٩</sup> فكيف يمكن بناء المعقولة في الشرعيات على القطع بدل الظن؟ والشرعيات وضعية تعتمد على النقل وليست عقلية أي من إنشاء العقل. يجيب الشاطبي على هذا السؤال الكبير بأن ذلك ممكن لأن الوضعيات قد تجاري العقليات في إفادة العلم القطعي، وذلك باعتماد الطريقة البرهانية في بناء أصول الفقه على (كليات الشريعة) وعلى (مقاصد الشرع)<sup>٤٠</sup>

فكليات الشريعة تقوم مقام الكليات العقلية في العلوم النظرية، بينما مقاصد الشرع هي السبب الغائي الناظم للمعقولة. والوصول إلى الكليات الشرعية من خلال القضايا الجزئية المتمثلة في الأوامر والنواهي الشرعية<sup>٤١</sup>

### مواصفات البرهانية

يتوصل إلى هذه الكليات عن طريق الاستقراء، استقراء الجزئيات واستخلاص الكليات منها. وهذه الكليات تفيد القطع كما في العلوم البرهانية الأخرى، ومواصفات هذه البرهانية ثلاثة وهي التي تحدد الفرق بين ما هو ظني وما هو علمي قطعي.

- العموم والاطراد: فأحكام الشريعة تتصف بها لأنها تعم المكلفين جميعاً، ولا تختص بزمان أو مكان أو شخص معين.

- الثبات وعدم التغير: وأحكام الشريعة هي كذلك فالحلال بين والحرام بين، وما وضع سبباً أو شرطاً يبقى كذلك.

<sup>٣٩</sup> الجابري، محمد عابد. التراث والحداثة. الدار البيضاء. المركز الثقافي العربي. ١٩٩١. ص ٢١٠

<sup>٤٠</sup> الموافقات ج ١ ص ٧٧

<sup>٤١</sup> الجابري، محمد عابد. التراث والحداثة. الدار البيضاء. المركز الثقافي العربي. ١٩٩١. ص ٢١٠

. القانونية: أي كون العلم حاكما لا محكوما عليه فالشريعة أوامر ونواه لاشيء يعلو عليها.<sup>٤٢</sup>

وهكذا فالشريعة تتوافر فيها شروط العلم البرهاني، فلا يجوز أن تحوم حولها الشكوك والظنون<sup>٤٣</sup>

ودعوة الشاطبي للعلم القطعي هي أصلا دعوة للعقل، خصوصا وأن نظريته تقوم على مراعاة الحكمة والغاية التي هي في نهاية الأمر تحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل. واشترط أن يكون مدلول العقل هو الاستدلال العلمي الذي يستند إلى منطلقات أولية تستنتج منها استنتاجات منسجمة معها خالية من التناقض<sup>٤٤</sup>

إنها منطلقات مقبولة عقلا وشرعا لأن استقراء الشريعة يؤكد لها من ذلك مثلا لا ضرر ولا ضرار، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وإنما الأعمال بالنيات.

## تصنيف العلوم

### أقسام العلم

لتصنيف العلوم عند الشاطبي غاية تربوية تعليمية، فهو لم يخص ما كان سائدا في عصره من علوم ومعارف مثلما فعل كثير ممن خاضوا في هذا الفن فأحصوا العلوم ورتبها وبوبوها وعنوا بتعريف حدودها ومناهجها وتفريعاتها.

فتصنيف العلوم عند الشاطبي تصنيف فقهي أصولي، معايير محددة في الغاية العملية من العلم والمعرفة.

انطلق في تصنيفه من تحديد شروط العلم ومعايير الثابتة وراعى في تقسيم العلوم مدى تحقق هذه المعايير فيها وتوفرها على الشروط الدقيقة التي توضح الفرق بين ما هو قطعي وما هو ظني.

قسم الشاطبي في المقدمة التاسعة العلم إلى ثلاثة أقسام:

<sup>٤٢</sup>الموافقات ج ١ ص ٧٧

<sup>٤٣</sup>الجابري، محمد عابد. التراث والحداثة. الدار البيضاء. المركز الثقافي العربي. ١٩٩١. ص ٢١٠

<sup>٤٤</sup>بادو، عبد الجليل. منهج التربية والتعليم عند الإمام الشاطبي. مجلة المري. تطوان عدد ٤ (١٩٩٤) ص ٧

١. ففي القسم الأول رتب الأصل المعتمد وهو العلم القطعي الراجع إلى أصل قطعي وتوضع الشريعة في هذه الطبقة لأنها قطعية منزلة على هذا الوجه لذلك كانت محفوظة في أصولها وفروعها وهو ما ترشد إليه الآية الكريمة {إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} لأنها ترجع إلى حفظ المقاصد التي يتم بها صلاح الدارين<sup>٤٥</sup> فهي علم أصل راسخ الأساس ثابت الأركان لأن العلم بها مستفاد من الاستقراء العام الناظم لأشتاتها حتى تصير في العقل مجموعة في كليات مطردة عامة ثابتة حاکمة غير محكمة.

خواص العلم القطعي المرتب في هذه الطبقة ثلاثة:

. العموم والاطراد.

. الثبوت من غير زوال.

. الحاکمية القانونية.

٢. القسم الثاني يرتب فيه العلم الظني أو ما كان قطعياً في الأصل لكنه تخلف في خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث السابقة. ومن الأمثلة التي يسوقها الشاطبي للتخلف في هذه الخواص:

. استخراج الحكم لما لا يعقل معناه على الخصوص في التعبدات.

. لزوم ما لا يلزم من الكيفيات في كل الأخبار.

. التأنيق الزائد في طلب الحديث.

. الأخذ من الرؤيا باعتبارها وسيلة علم.

. بناء الفروع العلمية على المسائل التي يختلف فيها.

. الاستناد على الأشعار في تحقيق المعاني العلمية والعملية.

. الاستدلال بكلام المتصوفين.

. حمل بعض العلوم على بعض في قواعده، كحمل الفقه على اللغة.

<sup>٤٥</sup>الموافقات ج ١ ص ٧٧

٣. القسم الثالث ويضم ما ليس من صلب العلم ولا من ملحه، أي العلوم التي لا ترجع إلى أصل قطعي ولا ظني كالسفسطة والسحر.

ويذكر الشاطبي أن العلم المصنف في القسم الأول، يمكن أن يتقهقر عن طبقته إذا أخضع لمنهج العلوم الأخرى المرتبة في الطبقات الدنيا، فيختل بذلك شرط من شروطه الثلاثة الأساسية، كالفقيه يبني فقهه على مسألة نحوية أو قاعدة حسائية. فالعلوم وإن كان يخدم بعضها بعضا وتتكامل فيما بينها، فلا يجب التذرع بهذه القاعدة للخلط بين العلوم، فلكل علم مناهجه الخاصة به<sup>٤٦</sup>

ومن خلال هذا التصنيف، نستخلص معالم لما كان سائدا في الواقع الثقافي العلمي في عصر المؤلف، وتحدياته المتمثلة في شيوع الخرافات وانتشار البدع وآراء المتصوفة ومذاهبهم، وهيمنة التقليد في أشع صورته. هذا الواقع الذي حرص الشاطبي على نقده وتصحيحه وتنقيته، وتوجيه العقلية الإسلامية نحو الاختيار والتمحيص والتدقيق، بعد تربية هذه العقلية وتزويدها بالمعايير الدقيقة للتمييز بين المعارف والعلوم، وكيفية التعامل معها بالنقد والتمحيص والبحث الدقيق.

وانطلاقا من هذا التقسيم وتأسيسا عليه يعرض الشاطبي أنواع العلوم التي يتعين على المتعلم المسلم طلبها، معروضة في شكل منهاج تربوي يستفيد منه العلماء المربون وطالبو العلم المتربون.

### أنواع العلوم

نحى الشاطبي في تقسيمه العلوم منحى تأصيليا بإخضاعه العلوم للضوابط الشرعية الإسلامية. وهذا المنحى مختلف كلياً مع المنهج التقليدي الذي كان سائدا لدى الفلاسفة قبله أمثال الفارابي وابن سينا.

أقام الشاطبي تصنيفا ميز فيه بين أنواع العلوم على أساس ارتباطها بالعمل والعبادة وهو ما حرره من التأثير اليوناني الذي كان حاضرا في تصانيف غيره، وتصنيف الشاطبي يفيد في بناء منهاج دراسي ينسجم مع واقع المجتمع الإسلامي وحاجتهم الثقافية، ويسهل طلب العلم والمعرفة على المسلم بما يتناسب مع الغايات السامية لحياته كما رسمتها عقيدته، لهذا جاء هذا الترتيب بمثابة برنامج تعليمي ديني.

قاعدة هذا الترتيب هو مدى استقامة العلوم وأغراضها مع ميزان الشرع الذي جاء أساسا بالتعبد، كما بسط الحديث عنه في فصول من كتابه الموافقات. لهذا سيكون المنهاج الدراسي يكتسي بعدا دينيا شرعيا

<sup>٤٦</sup>الموافقات ج ١ ص ٨٦

واضحاً، يؤدي إلى استجلاء الحقيقة الدينية في مختلف مظاهرها، يبدو فيه ترتيب العلوم واقعياً، وتكامل المواد الدراسية ممكناً وهادفاً إلى مساعدة المتعلم على إدراك مضامين تلك المواد وتمثلها<sup>٤٧</sup>

يقول الشاطبي في المقدمة الخامسة: إن العلم المطلوب هو الذي يبني عليه عمل، عمل القلب أو عمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعاً .

١. فهناك علم العمل.

٢. وعلم قريب الغرض من العمل، كالحساب والهندسة والتفسير واللغة.

٣. وعلم بعيد الغرض عن العمل، كالسحر والسفسطة والطلسمات.

١. فعلم العمل هو علم مفروض فرض عين، تعلمه واجب على كل مسلم، ويتضمن العلم بكيفية العمل الواجب وقت وجوبه.

٢. أما العلم القريب الغرض من العمل، فهو الذي يندرج في باب فروض الكفاية، وهي كل علم لا يستغني عنه قوام أمور الدنيا، كالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الفرائض، والتفسير فإنه يفيد في معرفة أحكام الدين. وهذه العلوم لو خلا البلد منها أو ممن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام به واحد كفى وسقط الغرض عن الآخرين. كما أن هذه العلوم مساعدة للعلوم الدينية، تساعد الناس على تحقيق القصد من خلقهم وهو تعمير الأرض واستثمارها، وتضم كذلك العلوم التي من شأنها أن تسهم في تثقيف الفرد وتكوينه تكويناً خلقياً، ومن ذلك الأدب واللغة والشعر الذي لا سخر فيه، وعلم الأخبار والتاريخ.

٣. أما العلم البعيد الغرض عن العمل كالسحر والطلسمات والسفسطة فهو علم محظور.

وهذا الترتيب هو للتمييز بين مختلف العلوم على أساس مضامينها وغاياتها، ومعيار هو الغاية العملية من العلم والمعرفة. دون إغفال التكامل بين مختلف العلوم انطلاقاً من ترتيبها وحاجة بعضها إلى بعض.

لم يجرد الشاطبي العلم الشرعي من بعده التربوي، بل قدمه على أنه الباعث على العمل والتدين تماماً كما كان في القرون الثلاثة الأولى المشهود لها بالخير. إذ لا علم شرعي إلا وهو مفيد للتربية، ولا قيمة لعلم لا يفيد العمل وفي ذلك يقول (العلم المعترف شرعاً أعني العلم الذي مدح الله ورسوله أهله على الإطلاق هو

<sup>٤٧</sup>صوان، مصطفى. محاولة بناء صنفاء تجسد المقاربة التكاملية. مجلة التبصرة. أكاديمية وجدة. عدد ١ (١٩٩٥) ص ١٣٠

العلم الباعث على العمل الذي لا يخلي صاحبه جاريا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعا وكرها<sup>٤٨</sup> (فالعلم الشرعي هو حامل على العمل والتعبد والصلاح، وشرط ذلك التعمق فيه والمثابرة عليه حتى يصل المتعلم إلى درجة المرابي العالم العامل (إذ المثابرة في طلب العلم والتفقه وعدم الاجزاء بالسير منه يجر إلى العمل ويلجئ إليه)<sup>٤٩</sup>

### بناء خطة تعليمية

#### النظر المصلحي إلى التعليم

حض الإسلام على طلب العلم بالتعلم، وعلى نشره بتعليم الناس. وحث على ذلك بالترغيب حيناً وبالترهيب أحيانا أخرى. وبحث الفقهاء في التعلم أو واجب هو أو مندوب أو فرض. ويكاد يجمع الفقهاء على أن من العلم ما هو فرض عين ومنه ما هو فرض كفاية، أما الإمام مالك رضي الله عنه، فإنه ينفرد بقوله بوجوب العلم وليس بفرضه<sup>٥٠</sup>.

إلا أن النظر المصلحي اقتضى أن تعليم الناس قد يكون فرض عين وقد يكون فرض كفاية، كما قد يكون مندوبا أو واجبا. وذلك حسب نوع العلم ودرجته وحسب المتعلم وحاجته.

وإذا كان من المصلحة نشر العلم، فإن مصالح أخرى تقتضي كتمان بعض العلم على بعض الناس، في ظروف معينة. دفعا للمفاسد التي قد تترتب على نشر ذلك العلم، لأنه ليس كل الناس قادرين على الفهم والاستيعاب. وقد ورد في السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يراعي قدرات الصحابة على الاستيعاب والفهم، فلا يكثر عليهم بالتعليم. كما أن الصحابة، رضوان الله عليهم، امتنعوا عن إملاء ونشر بعض الأحاديث النبوية الشريفة بين عامة الناس، واكتفوا بأن أخبروا بها خاصتهم ساعة احتضارهم خشية ضياع الحديث<sup>٥١</sup> على الرغم من ورود الأمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع واضحا بتبليغ الحديث الشريف. وما فعله الصحابة ليس من باب عدم الامتثال للسنة أو تنقيصا من قيمة الحديث أو تشكيكا فيه. وإنما أمسكوا عن نشر أحاديث معينة بين أناس محددين وفي ظروف خاصة، لأن النظر

<sup>٤٨</sup> الموافقات. جزء ١ ص ٦٩

<sup>٤٩</sup> الأنصاري، فريد. التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، الدوحة. وزارة الأوقاف. ١٤١٦. (سلسلة كتاب الأمة: ٤٨) ج ٢ ص

<sup>٥٠</sup> ابن عبد البر النمري. كتاب جامع بيان العلم وفضله. بيروت دار الكتب العلمية. ج ١ ص ١٠

<sup>٥١</sup> الريسوني، أحمد. كتاب نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي. الدار البيضاء، المعهد العالمي للفكر الإسلامي: ١٩٩٠ ص ٢٦٣



المصلحي اقتضى ذلك ودفعاً للمفسدة التي قد تنتج بسبب سوء تصرف العوام في الحديث لقصورهم عن فهمه وعدم إدراك مراميه<sup>٥٢</sup>.

يقول الشاطبي معلقاً على ذلك ( ليس كل علم مما هو حق يطلب نشره... بل ذلك ينقسم، فمنه ما مطلوب النشر، وهو غالب علم الشريعة. ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة و لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال وقت أو شخص)<sup>٥٣</sup> وهذا الأمر يزيد من قوة المسوغ الداعي إلى التعلم على يد شيخ مرب، قادر على تمييز العلم المفيد للمتعلم، المناسب له. بخلاف الاكتفاء بأخذ العلم من الصحيفة، الذي قد يؤدي، أحياناً، إلى نتائج سيئة.

وقد وضع الشاطبي رحمه الله للمعلم المري ضابطاً يميز ما يجب تعلمه ونشره، أو يجب الإمساك عنه. فقال ( وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها، فلك أن تتكلم فيها، إما على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم. وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ، فالسكوت عنها هو الجاري على وجه المصلحة الشرعية و العقلية<sup>٥٤</sup>.

وجوب التعلم على معلم

إن الإنسان يولد لا يعلم شيئاً من مصالحه وضروراته والله يعلم، وتعليم الله للإنسان على ضربين:

. علم غريزي ضروري لاستمرار الحياة كالرضاعة.

. علم يتم بواسطة التعليم، ومنه الكلام وسائر العلوم النظرية والمحسوسة والمعقولة<sup>٥٥</sup>

والعلم الذي يتم بواسطة التعليم على نوعين أيضاً:

---

<sup>٥٢</sup>الريسوني، أحمد. كتاب نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي. الدار البيضاء، المعهد العالمي للفكر الإسلامي: ١٩٩٠ ص

٢٦٣.

<sup>٥٣</sup> الشاطبي: الموافقات ج ٤ ص ١٨٩

<sup>٥٤</sup> الشاطبي،: الموافقات ج ٤ ص ١٩١

<sup>٥٥</sup>الموافقات ج ١ ص ٩١

- علم في أحكام الله، يحتاج إلى التعلم البشري ولا بد فيه من الحفظ وتكريس المسائل والأخذ من أفواه الرجال ومطالعة الكتب الصحاح.

- علم عن الله، وذلك موهبة ونور يقذفه الله في قلب من تفضل عليه فلا يحتاج إلى شيخ ولا إلى غيره.

وهذا النوع الثاني مترتب عن الأول، بمعنى أنه بعدما يتعلم المكلف ويعمل بعلمه ويقف عند حدوده متقيا الله حينئذ يتفضل عليه الله ويقذف في قلبه نورا، وهذا من قبيل الموهبة والذي ترشد إليه كثير من الآيات الكريمة<sup>٥٦</sup>

فلا بد إذن من معلم يكون وسيلة لإكساب المكلف المعرفة في أحكام الله ويربيه على التقوى.

يقول الشاطبي أن إمكانية التعلم بدون معلم مسلم بها، لكن يتفق الناس جملة على أنه لا بد من معلم يفتح عقل المتعلم ويساعده على اكتساب المعرفة.

ومن شروط أهلية هذا المعلم، التحلي بالصفات المحمودة التي كان يتصف بها أئمة السلف الصالح في العلوم الشرعية والافتداء بها وهي:

. التحقق: أن يكون متحققا عالما مقتديا بأداب شيوخه<sup>٥٧</sup>

. الإحاطة والتمكن: أن يكون عارفا بأصول علمه وما ينبني عليه وما يلزم عنه.

. التعبير: أن يكون قادرا على التعبير بوضوح عن مقصوده.

. البحث: أن يكون قائما على دفع الشبه الواردة فيه.

- ولا تشتط السلامة والعصمة من الخطأ البتة لأن فروع كل علم إذا انتشرت وانبنى بعضها على بعض اشتبهت. روى الشاطبي هذه الشروط عن شيخه أبي علي الزواوي (ت: ٧٤٣) وأضاف أنه رآها منصوطة للفيلسوف أبي نصر الفارابي (ت: ٣٣٩) في بعض كتبه<sup>٥٨</sup>.

<sup>٥٦</sup> الموافقات ج ٤ ص ٩٨

<sup>٥٧</sup> الموافقات ج ١ ص ٩٣ و ٦٥

<sup>٥٨</sup> الريبوني، أحمد. كتاب نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي. الدار البيضاء، المعهد العالمي للفكر الإسلامي: ١٩٩٠ ص ٨٨

## طرق التعليم والتعلم

يتم اكتساب العلم عن طريقين:

الطريق الأول المشافهة والرواية والتلقي. وهي أنفع الطريقتين وأسلمهما، وخاصة جعلها الله تعالى بين المعلم والمتعلم، يشهدها كل من زاول العلم، فكم مسألة يقرأها المتعلم ولا يفهمها إلا إذا ألقاها عليه المعلم. وهذا الفهم يحصل إما بأمر عادي من قرائن الأحوال وإيضاح موضع إشكال لم يخطر ببال المتعلم، وقد يحصل بأمر غير عادي يهبه الله للمتعلم عند مثوله بين يدي المعلم، وهذا ليس ينكر، فقد نبه عليه الحديث الشريف، وشرحه الفقهاء والشيوخ<sup>٥٩</sup>

ففي الجلسة التربوية تكون للنفوس قوة خاصة واستعداد خاص لاستقبال مفاهيم النصوص الشرعية استقبالا جيدا. وحضور المربي وعلاقته بالمتعلم يضمن توفير الظروف والشروط التي تساعد المتعلم على استقبال مفاهيم النصوص الشرعية استقبالا جيدا واستيعابها<sup>٦٠</sup>

الطريق الثاني مطالعة كتب المصنفين، وحتى تكون هذه المطالعة مفيدة، موصلة إلى العلم، محققة الغاية، يجب أن تكون بشروط منها:

1. حصول فهم مقاصد العلم المطلوب.

2. معرفة اصطلاحات أهله. وهذان الشرطان مرتبطان بطريقة المشافهة، لأن الكتب لا تفيد دون فتح العلماء لها.

3. تحري كتب المتقدمين من أهل العلم لأنها أقرب إلى السنة وأوثق علما<sup>٦١</sup> فالتأخر لا يمكن أن يبلغ من الرسوخ الذي بلغه المتقدم. فأعمال المتقدمين في إصلاح دنياهم ودينهم على خلاف أعمال المتأخرين وعلومهم في التحقيق. وتحقق الصحابة بعلوم الشريعة ليس كتحقق التابعين.

نستنتج من كلام الشاطبي أن طلب العلم له مرحلتان.

<sup>٥٩</sup> الموافقات ج ١ ص ٩٦

<sup>٦٠</sup> الأنصاري، فريد. التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، الدوحة. وزارة الأوقاف. ١٤١٦. (سلسلة كتاب الأمة: ٤٧) ج ١

ص ٥٤

<sup>٦١</sup> الموافقات ج ١ ص ٩٣

مرحلة البداية: وتوجب أن تكون قراءة الطالب على الشيخ دون الكتب، تمتد هذه المرحلة طيلة سنوات التمدرس. وتبدأ من يوم دخول المدرسة أو الجلوس في حلقة العلم، حيث يتم الاتصال بالشيخ والاستماع منه والأخذ عنه مشافهة.

وهذه القراءة تحقق أغراضا تربوية عديدة وتضمن في تعليم الصبي الأمور التالية:

أ) تحقق إسناد العلم. وللإسناد أهمية كبيرة في الثقافة الإسلامية عموما وفي طرق التعليم على الخصوص. ويرى بعض الفقهاء أن الإسناد خاصة خص الله بها الأمة الإسلامية، وفيه قال عبد الله ابن المبارك (الإسناد عندي من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)<sup>٦٢</sup>

ب) معرفة مصطلحات العلوم والوقاية من الأخطاء وخاصة التصحيف، وهو قراءة الشيء على خلاف ما أراد كاتبه أو على ما اصطلحوا عليه. ومن أهم أسباب الوقوع فيه أخذ العلم من الكتاب والصحيفة وعدم تصحيح قراءتها بالسماع. بينما أخذ العلم من شيخ حافظ ضابط يقي المتعلم من الوقوع في هذا الخطأ الشنيع.

ج) متابعة المتعلم وترقيه العلمي. فالمشافهة تضمن للمتعلم الفهم الجيد وتمنحه فرصة السؤال والمناقشة، لأن المعلم يلقي العلم على قدر استيعاب المتعلم، والمتعلم يستوعبه على قدر طاقته. ويستطيع المعلم والمتعلم معا التحكم في سير الدرس وحجم المعلومات وطرق عرضها وبسطها عن طريق السؤال والمناقشة.

والشاطبي فصل الحديث في السؤال وآدابه في فصل خاص من الموافقات. فبالسؤال يقوم المعلم فهم التلميذ ويسبر قريحته ويختبر فهمه. وبالسؤال يحصل المتعلم المعرفة ويستنطق الشيخ ويرقى في مدارج العلم. وهذا ليس له من طريق آخر غير المشافهة.

د) تحقيق الألفة بين المعلم والمتعلم، وضمان تربية وتوجيه إلى جانب التعليم. لأن الاتصال المباشر بين المعلم والمتعلم يحقق الاقتداء والتأثر بالأخلاق وتقويم المعوج منها وتدعيم الحسن الملحوظ في المتعلم. ولذلك يشترط الفقهاء على المعلمين التحلي بالأخلاق الحميدة حتى يقتدي ويتأثر بهم المتعلمون وينشأون خيرين على خلق حسن. وفي هذا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه (ليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع، لهذا عظمت زلة العالم لما يترتب عنها من المفسد لاقتداء الناس به) وأوصى حبيب بن شهيد ابنه قائلا (يا بني

<sup>٦٢</sup> صحيح مسلم. المقدمة. باب بيان أن الإسناد من الدين

أصحاب الفقهاء والعلماء وتعلم منهم وخذ من أدبهم. فإن ذلك أحب إلي من كثير من الحديث) وفي المقدمة السابعة يورد الشاطبي عددا من الشواهد والمأثورات في هذا الباب<sup>٦٣</sup>.

مرحلة البحث والتعمق: وتدعو إلى قراءة الكتب التي صنفها الأئمة، وذلك بعد نهاية مرحلة المشاهدة وأخذ العلم عن الشيخ الذي فتح ما كان مغلقا من العلم في الكتب بتعريف المتعلم بمقاصد ذلك العلم ومصطلحاته.

يوصي الشاطبي المتعلم بالاعتماد في الدرجة الأولى على أمهات الكتب والمصادر الأصلية لأنها أكثر مصداقية وأغزر علما ممن ينقل عنها. وتفادي قراءة المختصرات لأنها لا تنقل بأمانة الأفكار والآراء التي تضمنتها المؤلفات الأصلية. كما أن المختصرات ينسب ما فيها إلى الأصل مع أن الواضع ليس واحدا وهذا ما يتنافى مع الصدق العلمي.

فضلا عن ذلك فإن إهمال أمهات الكتب واللجوء إلى المختصرات يضعف الحركة العلمية ويقف حجرة عثرة في طريق الاجتهاد والتطور العلمي، ويؤدي إلى جمود العلوم العقلية والنقلية على السواء. ومن أهم آثاره السيئة على التربية قصور هم المتعلمين وانصرافهم إلى قراءة المتون والمختصرات التي تدفع بغموضها إلى قراءة الشروح، فالحواشي، فيزداد الأمر تعقيدا وبلبلة.

يراعي النهج التربوي الذي يقترحه الشاطبي مرتكزات متعددة تتفق مع المرتكزات التي تعتمدها التربية الهادفة في وقتنا الحاضر منها مراعاة مستوى المتعلمين العمري والعقلي باختيار اللغة والمضمون المناسبين لكل فئة مبتدئة كانت أو متقدمة. وإقامة الحوار المباشر الذي يعتمد على الاتصال كوسيلة والتواصل من خلال الأسئلة والمباحث المعروضة للنقاش والداعية لبذل الجهد العقلي المثمر المنشط للقدرات العقلية المختلفة<sup>٦٤</sup>

---

<sup>٦٣</sup> عبد العال، حسن إبراهيم. فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة. الرياض. مكتب التربية العربي لدول الخليج. ١٤٠٥ ص

<sup>٦٤</sup> وزارة التربية الوطنية. وثائق تربوية: تربية إسلامية ١٩٩٢ ص٧

## ترتيب الدروس

في كتاب الموافقات تمييز واضح وحدود بارزة بين تصنيف العلوم وترتيب الدروس. ورغم أن تصنيف العلوم يخدم أغراضا تربوية، ورغم هيمنته على الحياة التعليمية وبرامج الدراسة بها فإن الشاطبي عرض ترتيبا خاصا للدروس يساعد على بلوغ الأغراض من العلوم المدروسة ويضمن للمتعلم النجاح في تحصيل المعرفة.

فترتيب الدروس هو من الأسباب المنهجية الخاصة المؤثرة في مسيرة الحركة العلمية بتأثيرها في تكوين المثقفين والعلماء. وترتيب الدروس بشكل ما قد يكون من عوامل نجاح المتعلمين وتكوينهم تكوينا جيدا، كما قد يكون موضوعا على نمط يتسبب في خلق صعوبات معينة في تحصيل العلوم المدروسة وبلوغ غاياتها.

ومن ذلك كان السؤال الذي واجه المربين المغاربة هو ترتيب القرآن والعربية بأيهما نبدأ؟ وهذا السؤال فرض نفسه بإلحاح على كثير منهم.

يرى الشاطبي أن درس العربية أولى بالتقديم من غيره. بعد التمكن من اللغة العربية، أساليبها وقواعدها، معاني ألفاظها وآدابها، يتقدم المتعلم لدراسة القرآن الكريم، ويتيسر له ذلك بفضل دراسته السابقة للعربية، ثم الحديث وعلومه، ثم التفقه في الدين إلى سائر ما يتعلق بالشرعية من العلوم<sup>٦٥</sup>

وهذا الترتيب الأندلسي للدروس يختلف عما كان سائدا في بلاد الغرب الإسلامي، حيث كان يقدم حفظ القرآن الكريم على غيره، اعتبارا لقداسة هذا الكتاب وضرورته لمعرفة الدين وأحكامه وإقامة الصلاة وغيرها من العبادات. و(إشارا للتبرك والثواب، وخشية ما يعرض للولد من جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن)<sup>٦٦</sup> لهذا كان نظام التعليم في المغرب يبدأ مع المتعلم بحفظ القرآن، بعد حفظ القرآن يشرع المتعلم في دراسة اللغة بحفظ المتون ثم بعد ذلك الحديث فالفقه وغيره من العلوم.

بينما الفقهاء المجتهدون من أهل الأندلس كأبي بكر بن العربي والشاطبي، يرون أن تعلم العربية يجب أن يسبق تعلم القرآن. لأن معرفة اللغة العربية ضرورية لفهم القرآن ومعرفته. والبدء بتعلم اللغة العربية ينمي في المتعلم اهتمامات فكرية فعالة، لأن النص القرآني معجز من أوجه متعددة، ومنها اللغة. وعلوم اللغة يسميها المغاربة علوم الآلة لأنها وسيلة أو آلة لدراسة القرآن. والبدء بتعلمها ينمي في المتعلم تركيزا يساعده على

<sup>٦٥</sup> الموافقات ج ١ ص ١٨٠

<sup>٦٦</sup> ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة. بيروت. ص ٧٤٢

تمثل داخلي للمعرفة الدينية التي أصلها القرآن الكريم، فيقبل معلوماته تقبلا مدركا واعيا. ويشبه ابن العربي حفظ المتعلم للقرآن وهو لا يعقل منه حرفا، كحفظ العربي للتورات بالعبرية. فالغاية من التعلم هو تحصيل العلم ومعرفة الحدود وليس حفظ الحروف. وهذا هو الذي يحدد الفرق بين المجتهد العالم بالحدود والمقلد الحافظ للحروف. يقول الشاطبي (وهكذا الترتيب فيمن ظهر عليه وصف الإقدام والشجاعة وتدبير الأمور)<sup>٦٧</sup> فيتبين لنا أن الغاية من هذا الترتيب للدروس ليس حفظ القرآن وحده، بل بث الروح الإسلامية، بثا قويا ثابتا في ذات الناشئ المتعلم.

## التكوين والتوجيه

ويقدم الشاطبي في كتابه المذكور توجيهات تربوية تعتبر تجديدا في النظام التربوي، تجمع هذه التوجيهات بين خصائص التعليم الجماعي والتعليم الفردي. وبين التكوين العام والتكوين التخصصي المعمق.

والبحث والتجريب يؤكد كل يوم وجود اختلافات قائمة بين الأفراد من حيث تكوينهم الجسدي وبنيتهم العقلية والعاطفية وغيرها. فمن الخطأ معاملة كافة المتعلمين معاملة واحدة، فذلك من أسباب الهدر الذي يؤدي إلى ضياع سنوات من عمر المتعلم فيما لا يواتيه. وهذا الأمر التفت إليه كثير من المربين المسلمين ونبهوا عليه .

والخطوات التي يعرضها الشاطبي هي التالية:

١. يدرس المتعلمون الآداب المشتركة بجميع العلوم. فالمنهاج التعليمي يجب أن يحتوي على جدع مشترك بين جميع العلوم يدرسه التلاميذ كافة، بهذا نغرس في نفوسهم نواة المعرفة الأساسية، وبشكل متساو وعادل. ونترك كل واحد منهم يأخذ منها القسط الذي يقدر عليه بما يناسب قدراته وميوله.

٢. بعد ذلك يوجه المتعلمون إلى علوم محددة حسب ميولهم الحقيقية، وهذه الميول يقول الشاطبي قد تكون بادية للعيان وقد لا تكون بادية، حين يظهر المتعلم اهتماما عاما بسائر العلوم وقدرة أولية على استيعابها كلها. فيجب على المعلم المربي تحري ميول المتعلم الحقيقية الكامنة، ليوجهه الوجهة المناسبة له ويزيد من تعميق تكوينه.

٣. في الطور الثالث يكون تخصصهم العلمي أكثر دقة وعمقا.

٤. ثم طور رابع، وهكذا حتى يصلوا إلى مرتبة الاجتهاد والاتقان.

والعمل التربوي في جميع مراحل التعليم يجب أن يكون مراعيًا لمستويات المتعلم العقلية والمعرفية. ولا يذكر للمبتدئ من العلم ما هو حظ المنتهي، بل يربى بصغار العلم قبل كبارهم<sup>٦٨</sup> وعلى الترتيب الذي سبق ذكره، أي بتقديم تعليم العربية، ثم القرآن، ثم الحديث فالفقه. وهذا ما نص عليه ربانيو العلماء. وهو كفيل بالوصول بالمتعلم إلى بلوغ الرتب العلمية العليا .

وبذلك يتربى لكل فعل ما هو فرض كفاية قوم، لأنه سير أولاً في طريق مشترك، فحيث وقف السائر وعجز عن السير فقد وقف في مرتبة محتاج إليها في الجملة، وإن كان به قوة زاد إلى السير إلى أن يصل إلى أقصى الغايات في المفروضات الكفائية<sup>٦٩</sup>

إن نقطة الانطلاق واحدة للجميع، تحقق تعميم المعرفة الأساسية وضمان الحق في التعلم. بعد ذلك يكون التوجيه نحو ضمان التثقيف المتلائم مع خصائص الأفراد وميولهم وإمكاناتهم. ومهمة التوجيه كما يحددها الشاطبي دقيقة وفي غاية الأهمية بالنسبة للفرد المجتمع. إذ ينبغي أن يتم فيه التوفيق بين متطلبات تربية فردية كاملة، وبين متطلبات وظيفية ملائمة للقيم الفردية في المجتمع.

يقول الشاطبي: فأنت ترى أن الترقى في طلب الكفاية ليس على ترتيب واحد، ولا هو على الكفاية بإطلاق، ولا على البعض بإطلاق، ولا هو مطلوب من حيث المقاصد دون الوسائل، ولا بالعكس، بل لا يصح أن ينظر فيه بنظر واحد حتى يفصل بنحو من هذا التفصيل، ويوزع في أهل الإسلام بمثل هذا التوزيع.<sup>٧٠</sup>

في هذا يتحقق التكيف الذاتي والاجتماعي الضامن لبلوغ السعادة الفردية في اختيار النشاط الذي يستجيب لرغبات الفرد وكفاءته ويلبي حاجة المجتمع المسلم

<sup>٦٨</sup> الموافقات ج ٤ ص ١٠٢ و ١٩٠

<sup>٦٩</sup> الموافقات ج ١ ص ١٨١

<sup>٧٠</sup> الموافقات ج ١ ص ١٨١



## النهوض بالاجتهاد

لعل من أسباب تردي العقل المسلم القول بسد باب الاجتهاد الذي أعلنه بعض المقلدين. وكان من نتائج ذلك تخلف المسلمين وعدم قدرتهم على تصحيح أخطائهم في عباداتهم ومعاملاتهم، وتسرب الخرافات والبدع والفهوم الخاطئة عن العقيدة. لأن سد باب الاجتهاد معناه إلغاء العقل المسلم وتجميده ومنعه من مسانرة الحياة ومستجداتها والتصدي لمشاكلها ونوازلها.

فالاجتهاد كمصدر تشريعي أغنى وأعطى الكثير وأجدى على المسلمين أيام نهضتهم وضمن للشرعية صلاحيتها لكل زمان ومكان. فالإسلام رفع الحجر والوصاية عن العقل وأطلقه من قيوده وحرضه على التفكير والتأمل.

لذلك حرص الشاطبي على تجديد العقل المسلم حتى يصبح قادرا على تحمل مسؤوليته في التفكير، وعلى ممارسة حقه في الاجتهاد، ويحتل مكانته التي بوأه إياها الإسلام، ويعود بالفقه إلى عصره الذهبي، ويسترجع المكاسب العظيمة التي حققها في العصور السابقة.

يرى الشاطبي أن الاجتهاد ضرورة من ضرورات الحياة لأنه مرهون بالتكليف فلا يمكن أن ينقطع حتى ينقطع التكليف، وذلك عند قيام الساعة. وهو فرض لازم للأمة الإسلامية ويقوم به الفرد المؤهل الذي تتوفر فيه شروطه واستكمل أدواته وتهيأت له أسبابه، فهو لا يتبع أهواء الأفراد. فالحكم الشرعي لا يقوم على ما يستحبه المجتهدون دون دليل، أو يوافق أهواء الحكام أو المستفتين ويستجيب لحاجاتهم، وإنما ينبني على المصلحة التي شهد لها الشرع بالاعتبار، والتي تحافظ على مقصود الشارع.<sup>٧١</sup>

فالشرطان الأساسيان اللذان ينبغي أن يتوفرا في المجتهد بعد البلوغ والعقل والعدالة:

. فهم مقاصد الشريعة وكما لها.

. التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها.

---

<sup>٧١</sup>الكتاني، يوسف. الاجتهاد، مظهر الأصالة والمعاصرة في الفكر الإسلامي: مجلة دعوة الحق. الرباط. عدد ٢٨١

## درجات الترقى في العلم

لبلوغ الشرطين السالفي الذكر يمر الفقيه بمراحل ثلاث يترقى عبر درجاتها حتى يصل إلى رتبة الرسوخ التي تؤهله للاجتهد والإفتاء والتربية. هذه الدرجات يعرضها الشاطبي مرتبة على الشكل التالي: مرتبة التقليد، مرتبة الاستدلال، مرتبة التحقيق.

١. مرتبة التقليد: ويصنف فيها طالب العلم الذي لم يحصل بعد على كماله. وهذه الرتبة تقوم على التصديق لا البرهان.

في هذه المرحلة يتنبه عقل المتعلم إلى النظر فيما حفظ والبحث عن أسبابه، وينشأ هذا عن شعور بسره وحكمته بمعنى ما حصل، لكنه مجمل بعد، وربما ظهر له مفصلا في بعض أطراف المسائل جزئيا لا كلياً، وربما لم يظهر بعد، فهو ينهى البحث نهايته. ومعلمه عند ذلك يعينه بما يليق به في تلك الرتبة، ويرفع عنه أوهاما وأشكالا تعرض له في طريقه، يهديه إلى مواقع إزالتها في الجريان على مجراه، مثبتا قدمه ورافعا وحشته. حتى يتسنى له النظر والبحث على الصراط المستقيم.

فهذا الطالب حين بقاءه هنا ينازع الموارد الشرعية وتنازعه، ويعارضها وتعارضه، طمعا في إدراك أصولها والاتصال بحكمها ومقاصدها، ولم يتخلص له بعد<sup>٧٢</sup>

يبحث فيها الطالب على العلم بالترغيب، وإن اقتضى الحال بالترهيب والزجر والعقاب. وجميع أهل العلم يمرون بهذه المرحلة قبل الانتقال إلى المرحلتين التاليتين<sup>٧٣</sup>.

صاحب هذه الرتبة مقلد لا يصح منه الاجتهاد فيما هو ناظر فيه لأنه لم يتخلص له مسند الاجتهاد، ولا هو منه على بينة بحيث ينشرح صدره فيما يجتهد فيه. فاللازم له الكف عن الاجتهاد والاكتفاء بالتقليد<sup>٧٤</sup>

٢. مرتبة الاستدلال: أو رتبة الخروج عن التقليد، بالوقوف على البراهين التي يشهد لها النقل ويصدقها العقل.

<sup>٧٢</sup>الموافقات ج ٤ ص ٢٢٤

<sup>٧٣</sup>الموافقات ج ١ ص ٦٩ وج ٤ ص ١٩١

<sup>٧٤</sup>الموافقات ج ٤ ص ٢٢٤

صاحب هذه المرتبة يتقبل ما قام عليه البرهان ويكتسب وصف العلم دون أن يكون عالما لأن مواقفه تبتعد أحيانا عن واقع علمه.

لا يتوفر فيه شرط فقه النفس أي لم يصير الفقه سجية ملازمة له بعد. فهو في مسيرته العلمية انتهى إلى تحقيق معنى ما حصل على حسب ما أداه إليه البرهان الشرعي، بحيث حصل له البرهان ولم يعارضه شك. بل قد تصير الشكوك. إذا وردت عليه. كالبراهين على صحة ما في يده.

وصاحب هذه المرتبة لا يصح منه الاجتهاد هو كذلك، لأنه غير متمكن فيها غير حاكم لها، فهو محكوم عليه فيها، وكل رتبة حكمت على صاحبها دلت على عدم رسوخه فيها<sup>٧٥</sup>

هؤلاء لا يكفي معهم الاعتماد على الجزاء والعقاب فحسب، إنما لا بد من تحفيزهم بالعادات الحسنة والمراتب اللائقة حسب ما ينسجم مع طبيعة مرتبتهم<sup>٧٦</sup>

٣. مرتبة التحقيق والرسوخ: ويرتب فيها الذي صار له العلم وصفا من الأوصاف الثابتة الأمور البديهية .

هذا هو العالم المجتهد الراسخ في العلم. لا يروي الفقه، لكن يعطي الفتيا لاكتسابه ملكة الإبداع والاجتهاد من خلال تعامله مع قضايا الشرع حفظا واستقراء واستنتاجا، يمكنه من إدراك المقصود الشرعي الذي تنزل عليه الفتوى حسب مقتضيات الأحوال والأوقات<sup>٧٧</sup>.

تفكيره مبدع، لا يقف عند الحفظ والتكرار، إنما يستند إلى الاستدلال والاستنتاج، كما هو الشأن في الفكر الرياضي<sup>٧٨</sup>

لا خلاف في صحة الاجتهاد ممن رتب في هذه الطبقة (يستحق الانتصاب للاجتهاد والتعرض للاستنباط) لأنه متمكن فيها حاكم لها غير مقهور فيها، فهي تحت نظره وقهره، وهو صاحب التمكين والرسوخ، فبعدهما تدرج في الرتبين وتحقق بالمعاني الشرعية المنزلة على الخصوصيات الفرعية، بحيث لا يصدده

<sup>٧٥</sup>الموافقات ج ٤ ص ٢٢٥ و ٢٣٢

<sup>٧٦</sup>الموافقات ج ١ ص ٧٠

<sup>٧٧</sup>الموافقات ج ١ ص ٧١ وأيضا: بادو، عبد الجليل. منهج التربية والتعليم عند الإمام الشاطبي. مجلة المري. تطوان عدد ٤

(١٩٩٤) ص ٨

<sup>٧٨</sup>بادو، عبد الجليل. منهج التربية والتعليم عند الإمام الشاطبي. مجلة المري. تطوان عدد ٤ (١٩٩٤) ص ٨

التبحر في الاستبصار بطرف عن التبحر بطرف آخر، فهو لا يجري على عموم واحد منهما دون أن يعرضه على الآخر. وفي خاصته أمران:

. أحدهما أنه يجيب السائل بما يليق به في حالته على الخصوص، إن كان له في المسألة حكم خاص.

. والثاني أنه ناظر في المآلات قبل الجواب عن السؤالات.

يسمى صاحب هذه المرتبة الرباني والحكيم والراسخ في العلم والعالم والفقير والعامل، لأنه يربي بصغار العلم قبل كباره ويوفي كل أحد حقه حسبما يليق به، وقد تحقق بالعلم وصار كالمجبول عليه وفهم عن الله مراده<sup>٧٩</sup>

ودرجة الاجتهاد هذه تحصلت له لأنه اتصف بوصفين: أحدهما فهم مقاصد الشريعة على كمالها والثاني التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها.

فإذا بلغ الإنسان مبلغاً فهم عن الشارع فيه قصده في كل مسألة من مسائل الشريعة، وفي كل باب من أبوابها فقد وصل له وصف هو السبب في تنزله منزلة الخليفة للنبي صلى الله عليه وسلم في التعليم والفتيا والحكم بما أراه الله.

أما الثاني فهو كالخادم للأول. فإن التمكن من ذلك إنما هو بواسطة معارف محتاج إليها في فهم الشريعة أولاً ومن هنا كان خادماً للأول لأنه المقصود والثاني وسيلة.

لكن هذه المعارف تارة يكون الإنسان عالماً بها مجتهداً فيها. وتارة يكون حافظاً لها متمكناً من الاطلاع على مقاصدها غير بالغ رتبة الاجتهاد فيها. وتارة أخرى يكون غير حافظ إلا أنه عالم بغايتها، وإن كان له افتقار إليها في مسألته التي يجتهد فيها<sup>٨٠</sup>

لم يفرق الشاطبي بين العالم والمربي، بل جعلهما لمسمى واحد، لكن ليس أي عالم. فقد جعل الشاطبي لقب المربي مرادفاً للعالم الرباني وهو الفقيه الراسخ في العلم الذي تفرغ للعلم فأعطاه عمره كله حتى رسخ

<sup>٧٩</sup>الموافقات ج ٤ ص ٢٣٢

<sup>٨٠</sup>الموافقات ج ٤ ص ١٠٧

في صلبه، وهذا هو الذي يحمل لقب الرباني لأنه يربي بصغار العلم قبل كبارهم ويوفي كل واحد حقه حسبما يليق به. وقد تحقق بالعلم وصار له كالوصف المجبول عليه وفهم عن الله مراده<sup>٨١</sup>

وهكذا جعل الشاطبي العالم الراسخ في العلم مرييا حكيما بسبب وصف العلم الشرعي الذي تحقق له<sup>٨٢</sup>

---

<sup>٨١</sup>الموافقات ج ٤ ص ٢٣٢

<sup>٨٢</sup>الأنصاري، فريد. التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، الدوحة. وزارة الأوقاف. ١٤١٦. (سلسلة كتاب الأمة: ٤٨) ج ٢ ص

## الفصل الثالث

### مقاصد الشريعة الغائية والعلوم الوسيطة

موضوع المقاصد ذو أهمية كبيرة في الفقه الإسلامي، وأثر واضح على استنباط الأحكام الشرعية. فهو يضمن للشريعة القدرة على مسايرة الحوادث والصلاحية الدائمة، لأن أساسه الاجتهاد. فالمقاصد استنباطات، والاستنباط مصدر يضمن التجديد ويراعي الظروف، وتعيين مقصد شرعي أو كلي أمر تتفرع عنه أدلة وأحكام كثيرة<sup>٨٣</sup>

وحين أدرك الشاطبي أن أهم مقاصد الشريعة الإسلامية هو حفظ مصالح العباد. أوجب أن يلتزم كل نشاط وعمل انساني عقلي أو عملي برعاية هذه المصالح وعدم الإضرار بها.

رتب الشاطبي هذه المصالح إلى ثلاثة أصناف:

. الضروريات: لا بد منها للحياة البشرية وهي المسماة بالحقوق الخمسة.

. الحاجيات: وهي متعددة مثل الملبس والمسكن وغيره.

. الكماليات: كثيرة وغير محصورة ومنها الطب والتأنق.

فالمقصد التربوي الإسلامي مقيد بالشرع مستنبط من مقاصده. والشرع إنما جاء بالتعبد، والتعبد يشمل إعمار الأرض وإصلاح الحياة عليها، والشاطبي يؤكد ذلك بقوله إن إخضاع أفعال الفرد للمنهج المقاصدي يجعل كل أعمال المكلف عبادات.

ورصد المقاصد التي يتوخاها العمل التربوي الإسلامي يستدعي النظر في جملة كثيرة من مقررات الشريعة ليتم ضبط المقاصد الكلية<sup>٨٤</sup>.

---

<sup>٨٣</sup> حبيب، عبد العظيم. مقاصد الشريعة عند ابن العربي. جريدة العلم (الرباط) ١/١/١٩٩٣: ملحق الفكر الإسلامي عدد

<sup>٨٤</sup> بنحمزة مصطفى. مقاصد التربية الإسلامية. ضمن أعمال الدورة الثانية للجامعة الصيفية للصحة الإسلامية. الرباط. وزارة

ومقاصد التربية الإسلامية تتوجه إلى تحقيق مبدأ الانسجام الذي أسس الله عليه الكون، ولهذا الانسجام مستويات ثلاثة:

١. الانسجام الداخلي الذاتي، بتلبية الغرائز الفطرية وحماية الحقوق الخمسة الضرورية.
  ٢. انسجام اجتماعي، بين الفرد المكلف وأفراد نوعه بطلب الكفاية وتحقيق الحاجيات.
  ٣. انسجام كوني، بالعناية بأفق الإنسان ومجاله والعناية بالتحسينيات والتربية الجمالية والخلقية<sup>٨٥</sup>.
- واستيعابا لمقاصد الشرع الإسلامي، يؤكد الشاطبي أن العلم ليس غاية في حد ذاته، بل هو وسيلة عمل لبلوغ أهداف متنوعة متوافقة مع مضامين المقاصد ولا تتعارض معها.
- ولهذا يتعين على التعليم أن يضمن للناس حدا من الحماية والسلامة في دينهم وعقلهم ونسلهم وحياتهم ومالهم لتلافي الحرج بفوات هذه الحقوق وضياعها.
- . بتزويد المتعلم بعقيدة صحيحة في الله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وتعليمه أسس العبادات الصحيحة. وأساس ذلك معرفة القرآن الكريم واستيعاب السنة المطهرة وفقه العبادات.
- . تعليمه ما يضمن له عيشا يليق بكرامته كأدمي كرمه الله.
- . وتعليمه ما يضمن به حماية الحقوق الخمسة، له ولغيره من المسلمين.
- وتتضمن المصالح الحاجية ما يحتاجه الناس من حيث كمال صحتهم وتوسعة أرزاقهم ورفع مستوى معيشتهم ودفع كل ضيق وحرج عنهم.
- لهذا أوضح الشاطبي للمربين كيف يمكن أن يعلموا المكلفين الصنائع والمهن المختلفة التي ترفع مستوى المعيشة في المجتمع الإسلامي وتضمن له تحقيق كفايته وتلبية حاجاته.
- كما بين الشاطبي أن في تعليم الحساب والهندسة والعلوم والصنائع دفعا للحرج الذي ينتج عن فوارة مصالح الناس المرتبطة بهذه العلوم، كالأسفار والتجارة وقسمة الفرائض وإخراج الزكاة وغيرها.

---

<sup>٨٥</sup> بنحمة مصطفى. مقاصد التربية الإسلامية. ضمن أعمال الدورة الثانية للجامعة الصيفية للصحة الإسلامية. الرباط. وزارة

المصالح التحسينية: هي التي تتجه بالناس نحو الأحسن والأليق والأفنع من العادات ومكارم الأخلاق. وتجد في القرآن الكريم والسنة المطهرة، والآداب الرفيعة والفنون التعبيرية السليمة خير مجسد لها وداع إليها، ومرفق للطبع الإنساني والنفس البشرية.

فما هو الدور الذي يجب أن تضطلع به المؤسسات التربوية تجاه الناشئة.

في ضوء ما ذكر من توجهات تربوية أصولية، فإن العمل التربوي الإسلامي حسب منهج الشاطبي، يجب أن يتجه لتحقيق ما يلي:

. تربية عقلية إيمانية

. تربية خلقية جمالية

. تربية مهنية اجتماعية

### التربية العقلية الإيمانية

إن التربية الإسلامية من حيث هي مستملاة من الوحي، فإنها تعتمد على غرس الإيمان وتثبيتته في نفسية المكلف. وتعتبر ذلك قضيتها الأولى. وهي بهذا الغرس تثبت في نفسية المؤمن الرضا والاطمئنان الناشئين عن الارتباط بالله وعن الاعتماد عليه واستشعار دعمه ومدده والتسليم بقضائه<sup>٨٦</sup>.

فالإيمان اعتقاد عقلي مؤثر في وجدان المؤمن وقلبه. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تربط طمأنينة القلوب بالإيمان وذكر الله. والإيمان بالله يترتب عنه في الإسلام التزام بما شرعه الله من قوانين وما فرضه من عبادات على المكلفين.

يقول الشاطبي إن إدراك مقاصد العبادات والتشريعات يفضي إلى استخلاص الحكمة الإلهية من فرضها. وهذه الحكمة التي ترمي إلى غاية واحدة قصوى وهي صلاح أمر المكلفين في حياتهم الدنيوية. بإبعاد

<sup>٨٦</sup> بنحمة مصطفى. مقاصد التربية الإسلامية. ضمن أعمال الدورة الثانية للجامعة الصيفية للصحة الإسلامية. الرباط. وزارة



المفاسد وجلب المصالح وسعادتهم في الآخرة بنيل رضوان الله تعالى. وهذا الصلاح عماده إخلاص العبودية لله وحده ويحمل معاني متعددة منها السعادة والراحة والتوافق والانسجام .

والعبودية في الإسلام إنما تقوم بالاعتقاد العقلي . والله إنما يعبد بالعقل . الذي هو شرط التكليف .

والشاطبي مجدد منهج، مربي عقلية، داعية إلى التجديد ونبذ التقليد، عمل على تحرير أسس التشريع من المواضع اللغوية وبنائها على مقاصد الشريعة. ففتح أمام الفقهاء بابا جديدا للاجتهد وخرج بالفقه وأصوله من الجمود الذي تفرضه قوالب اللغة حتى يستطيع مواكبة المستجدات والتطورات الحادثة على المسرح الاجتماعي<sup>٨٧</sup>

شرح في فصول كثيرة من كتابه أهمية التبعيد في الإسلام، وبين أن الشرع إنما جاء بالتبعيد، وبما أن التبعيد في الإسلام شرطه العقل، فقد كانت عناية الشاطبي موجهة إلى الاهتمام بالعقل. وبدل العناية بتزويد المتعلم بأكبر قسط من المعارف الشائعة وحشدها في ذاكرته، هدفت خطة الشاطبي إلى إيقاظ العقل كله واستنهاض قدراته واستعداداته المختلفة، وتدريبها التدريب المنظم على التفكير المستقيم والحكم السليم، حتى يحسن المكلف المتعلم إدراك ما يحيط به من الأمور وما يستجد من الوقائع ويتصرف فيما يصادفه من نوازل وعقبات، ويحكم على الأمور الحكم المستقل المستند إلى مقدمات صحيحة.

إن العقل شرط أساسي لإصدار حكم ما لكن ليس كافيا لأن الإنسان يفكر في نفس الوقت بعقله وحده وعواطفه ونفوره. وتعقل الإنسان يفترض تدخل الخيال والعواطف، فكيف يمكن تربية عقل مؤمن موضوعي وعادل؟ الوسائل والخطوات التي يعرضها الشاطبي عديدة متنوعة، فعالة ومؤثرة، منها:

. تحديد المقدمات تحديدا دقيقا.

. تحديد شروط العلم القطعي وخصائصه.

- تقسيم العلوم وتصنيفها. ويرمي هذا العمل إلى توحيد جهود الفرد العقلية وقدراته وتوجيهها نحو العلم القطعي وتفادي الانسياق وراء البحث في الموضوعات الظنية، والذي يؤدي إلى ضياع الجهود وهدرها في طلب علم لا يستقيم ولا ترجى منه فوائد.

<sup>٨٧</sup> الجابري، محمد عابد. التراث والحداثة. الدار البيضاء. المركز الثقافي العربي. ١٩٩١. ص ١٠٥

. تدريب الحس على دقة التمييز وصحته، وملاحظة الأشياء المحسوسة وإدراكها على حقيقتها إدراكاً شمولياً وتجزئياً وتركيبياً.

. تدريب العقل على التفكير المستقيم، على جمع الحقائق الكامنة في الجزئيات والمقاصد وحسن الاستدلال بعد النظر والتأمل.

. تحديد المنهج الصحيح للنظر العقلي وتسديده بدعوة العقل إلى الأخذ بأسباب العلم ودعوته إلى تدبير حكمة الله في التشريع.

. تنقية العقل من الخرافة ورؤى الصوفية وأوهامهم حتى لا تتحكم في أحكام العقل خرافات وأوهام.

. تنقية العقل من الأحكام المبنية على الظنون والأوهام، لأن ذلك يضر بالعقل ويباعد بينه وبين الحقيقة، ويجول بينه وبين العلم.

. تنمية العقل بالعلم، لكن ليس كل علم ولا كل معرفة على الإطلاق، فبعض ما يحسب من العلم يضر بالعقل، فالعبرة بتوفر المعايير والمواصفات والشروط الإسلامية في العلم والمعرفة. وأهمها ضمان الحقوق الخمسة وحمايتها.

. المباعدة بين العقل والتبعية والتقليد، وتدريب العقل على الاجتهاد ودعوة الناس لاستعمال العقل فيما يحيط بهم من أمور.

. بث روح النقد البناء الذي يقف من المسموع والمقروء موقف المسائل الممحص المدقق.

. تنمية الرغبة الدائمة في البحث لدى المكلفين، وترقية حب الاستطلاع لديهم. أي تكوين عادة التعلم المستمر والاستزادة من العلم.

ويضيف الشاطبي أن من شروط التربية العقلية مخاطبة العالم المرابي المتعلم بما يحتمله عقله، فالتبجح بذكر المسائل العلمية لمن ليس من أهلها أو كبار المسائل لمن لا يحتمل عقله إلا صغارها هو عمل ضد التربية العلمية المشروعة، ينسف كل ما تسعى الشريعة إلى بنائه والوصول إليه، لأنه عمل يؤدي إلى المصائب العقائدية. وفيه قال الإمام على رضي الله عنه (حدثوا الناس بما يفهمون، أتجبون أن يكذب الله ورسوله)<sup>٨٨</sup>

لأن عدم مراعاة مستوى المتعلم وقدراته العقلية منهج تربوي خاطئ، يضرب شروط العلم نفسها وينزل بها من طبقتها إلى الطبقات الدنيا (فما كان حكمة بالذات قد ينقلب فتنة بالعرض)<sup>٨٩</sup> فعلم الشريعة قد ينزل به العالم المرابي . بمنهجيته الخاطئة . إلى الطبقة الثالثة أحيانا جنبا إلى جنب مع السفسطة. فجدير بعلماء الشريعة على وجه الخصوص أن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم، حتى تؤدي التربية العلمية أهدافها وتحقق الشريعة غاياتها بالمحافظة على مرتبتها السامية ( فلا يصح للعالم في التربية العلمية إلا المحافظة على المعاني، وإلا لم يكن مربيا واحتاج هو إلى عالم يريه)<sup>٩٠</sup>

يدعو الشاطبي المرابين إلى اعتماد منهج التكوين بدل منهج التلقين الذي كان سائدا لدى المتصوفة وأنصار التقليد. لأن المتعلم يتعلم من المرابي الرباني طرق الإنتاج، والمرابي يحرص على تكوين المتعلم وإعداده ليكون قادرا على تمثل قدرته على الفهم والاستيعاب.

وهذا التبع والاتصال التربوي المباشر يتيح للمرابي اكتشاف مواهب المتعلم وطاقاته لتطويرها قصد إنتاج الشخصية الإسلامية الفعالة العاملة النافعة نفسها ومجتمعها<sup>٩١</sup> يقول الشاطبي ( يتعين على الناظرين في الصبيان الالتفاتة إلى تلك الجهات فيراعونهم بحسبها ويراعونها إلى أن تخرج على أيديهم على الصراط المستقيم ويعينونهم على القيام بها )<sup>٩٢</sup>

فهذه الخطة التربوية تنتج عقلا علميا موحدًا مجتهدًا، يصعب أن تتمكن منه الخرافة والأفكار الوهمية لأنه مزود بملكة لمعرفة المقاصد العامة للشرع، ويستعين بمعايير شرعية ثابتة ومقاييس علمية عقلية دقيقة تسمح له بسلوك نهج نقدي قائم على الشرع يقبل أو يرد به أفكار الصوفية وآراء المبتدعة وخرافات العامة التي يواجهها في الحياة، وتشكل تحديا حقيقيا أمام العقل المسلم، فهل ينساق لها ويأخذ بها أو يرفضها رفضا دالا على فهم حقيقي للشرع الإسلامي وأحكامه ومقاصده. يقول الشاطبي ( لا بد في الاقتداء بالصوفي

<sup>٨٩</sup> الموافقات ج ١ ص ٨٧

<sup>٩٠</sup> الموافقات ج ١ ص ٨٧

<sup>٩١</sup> الأنصاري، فريد. التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، الدوحة. وزارة الأوقاف. ١٤١٦. (سلسلة كتاب الأمة: ٤٧) ج ١

ص ٦٣

<sup>٩٢</sup> الموافقات ج ١ ص ١٨٠

من عرض أقواله وأفعاله على حاكم يحكم عليها. هل هي في جملة ما يتخذ دينا أم لا؟ والحاكم هو الشرع. وأقوال العالم تعرض على الشرع أيضا)<sup>٩٣</sup>

فعقل مثل هذا عقل مؤمن مسدد يصعب أن تتسرب إليه الخرافة أو الفهوم الخاطئة المنحرفة لأنه محصن بقدرة استفهامية لا تدخل في قصد التكليف . على حد تعبير الشاطبي . إلا بعد تبين قصد الافهام<sup>٩٤</sup>

### التربية المهنية الاجتماعية

إن تعاليم الإسلام تهذب النزعة الفردية في الإنسان وتربيته على التواضع وعدم الاستعلاء وتحرص على دمج الفرد داخل منظومته الاجتماعية.

والإسلام يشعر الفرد بحاجته إلى الجماعة حاجة دينية، فالمكلف محتاج إلى الجماعة لتشاطره أجر تحمله كثير من التكاليف الشرعية الكفائية التي يتوجه الخطاب فيها إلى المجموع. لكن الإثم يقوم على الأفراد في حالة التخلي. لهذا جاءت تعاليم الإسلام وتوجهاته لتكون قاعدة متينة لتربية اجتماعية .

يقسم الشاطبي المقاصد إلى نوعين:

١ . مقاصد أصلية لاحظ للمكلف فيها. وهي الضرورات، وفيها يقوم الفرد بمصالح عامة مطلقة لا تختص بحال دون حال أو وقت دون وقت، وهي قسمان:

. المقاصد الأصلية العينية، وهي حفظ الحقوق الخمسة.

. المقاصد الأصلية الكفائية، وهي القيام برعاية المصالح العامة وحماية الحقوق لجميع الخلق<sup>٩٥</sup>.

---

<sup>٩٣</sup> الأنصاري، فريد. التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، الدوحة. وزارة الأوقاف. ١٤١٦. (سلسلة كتاب الأمة: ٤٨) ج ٢ ص

<sup>٩٤</sup> الأنصاري، فريد. التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، الدوحة. وزارة الأوقاف. ١٤١٦. (سلسلة كتاب الأمة: ٤٨) ج ٢ ص

٢. مقاصد تابعة، وفيها يراعى حظ المكلف وتحقيقه لمصلحه الخاصة لإشباع ما جبل عليه من الغرائز، وما فطر عليه من طباع، والاستمتاع بالمباحات وسد الخلات<sup>٩٦</sup>

ويضيف الشاطبي أن الدار الدنيا مزرعة للآخرة التي فيها النعيم الأبدي والشقاء الأبدي، لكن أسباب التنعم والشقاء فيها إنما تكتسب في الدنيا بالرجوع إلى ما حده الشارع أو بالخروج عنه<sup>٩٧</sup>

وبين الشاطبي أن حكمة الله عز وجل اقتضت أن قيام الدين والدنيا إنما يصلح ويستمر بدواع من قبل الإنسان، تحمله على اكتساب ما يحتاج إليه هو وغيره، فالمكلف موكول إليه السعي في لزوم الأسباب الموصلة إلى السعادة، واستعمال الأمور المؤدية إلى تلك الأغراض، ولضعف المكلف وعجزه عن القيام بذلك وحده ومقاومة هذه الأمور منفردا طلب التعاون وغيره، فحصل الانتفاع لنفسه ولغيره واستقام حاله بإفادة غيره، وتحقيق الانتفاع للمجموع بالمجموع. وإن كان كل فرد إنما يسعى في نفع نفسه، لكن على قوانين شرعية هي أبلغ في المصلحة وأجرى على الدوام مما يعده العبد مصلحة. ومن هذه الجهة صارت المقاصد الكلية التابعة مرتبطة بالمقاصد الأصلية وخادمة لها ومكملة لها.

ومع أن هناك دواع كثيرة تدعو الإنسان إلى العمل لتلبية حاجاته الملحة، ورغم قوة الباعث الذاتي الذي قد يحمل المكلف قهرا على طلب ما يحتاجه. يضيف الشاطبي أن الشرع جعل الاحتراف والتكسب على الجملة مطلوباً طلب الندب لا طلب الوجوب، وكثيراً ما يأتي في معرض الإباحة إلا أننا لو فرضنا أخذ الناس له كأخذ المندوب حيث يسعهم الترك لأثموا لأن العالم لا يقوم إلا بالتدبير والاكتساب<sup>٩٨</sup>. فحكم الاحتراف والتكسب هو حكم المندوب بالجزء الواجب كفاية بالكل. فيصبح التأثيم بترك الكل مع كونه مندوباً بالجزء.

وفي اكتساب المكلف بالتجارات والصناعات والإجارات . وغير ذلك من المعاملات . قياماً بمصالح الغير عن طريق مصلحته الشخصية، ومصالح الغير جاءت عرضاً.

<sup>٩٦</sup>الموافقات ج ٢ ص ١٧٨

<sup>٩٧</sup>الموافقات ج ٢ ص ١٧٩

<sup>٩٨</sup>الموافقات ج ٢ ص ١٨١

فطلب الكفاية متوجه إذن إلى الجميع، وإذا قام به البعض سقط عن الباقي، والطلب مع وروده على البعض يشترط فيهم أهلية القيام بذلك الفعل المطلوب وإلا صار من باب تكليف الفرد بما لا يطيق، ومن باب العبث بالنسبة إلى المصلحة المحتملة أو المفسدة المستدفة، وكلاهما باطل شرعا.

فالله عز وجل هيا الناس للحياة الاجتماعية، ودعاهم للتكسب ورغبتهم فيه، وجعل فيهم استعدادا للعمل المنتج القائم على التعاون مما يثري واقع الحياة الدنيا في هذا العالم الدنيوي الذي لا يقوم إلا بالتدبير والاكتساب.

فما دور التربية في هذا المجال؟ وما وظيفة المعلم المؤدب وحدود عمله لتحقيق ما ينص عليه الشرع، وبلوغ ما يقصده هذا الشرع الإسلامي الذي جاء ببيان ما تصلح به أحوال العبد في الدنيا والآخرة؟

يجيب الشاطبي أن الله خلق الناس غير عالمين بوجوه مصالحهم الدنيوية والأخروية، ثم وضع فيهم العلم على التدريج تارة بالإلهام وتارة بالتعليم. والمؤسسة التربوية بمكوناتها المختلفة وأشكالها المتنوعة وسيلة لتعليم الناس وتبصيرهم بمصالحهم المختلفة.

فطلب الناس بالتعلم والتعليم لجميع ما يستجلب به المصالح وتدرأ به المفاسد إنفاضاً لما جبل فيهم من الغرائز والمطالب الإلهامية، لأن ذلك كالأصل للقيام بتفاصيل المصالح على اختلاف أنواعها.

فوظيفة التربية هي إعداد الناشئة للعمل الإنتاجي والوظائف الاجتماعية التي تلبي الحاجات المختلفة للناس. والمعلمون والمربون هم الذين يكتشفون استعدادات الناشئة للأنشطة التي يميلون إليها والمهن التي تناسبهم فيوجهونهم نحوها.

فبعض الناس مهياؤن للعمل الفكري، وآخرون مهياؤن للقيادة، وغيرهم للتجارة أو الفلاحة أو الجندية. وفي أثناء العناية بذلك يقوى كل واحد من الخلق ما فطر عليه وما ألهم له من تفاصيل الأحوال والأعمال فيظهر فيه وعليه ويبرز فيه على أقرانه ممن لم يتهيأ تلك التهيئة فلا يأتي زمان التعقل إلا وقد نجح على ظاهره ما فطر عليه في أوليته، فنرى واحداً تهيأ لطلب العلم وآخر للرياسة وآخر للتصنع وآخر للصراع إلى سائر الأمور<sup>٩٩</sup>

ورغم أنه قد يبدي بعض الأطفال ميولا عامة تتجلى في قدراتهم على القيام بالمهارات التعليمية كلها بنفس المستوى من الكفاءة والإتقان، إلا أنه من المفترض عادة أن يكون هؤلاء الأطفال أكثر ميلا إلى نشاط محدد، فيتعين على القائم عليهم أن يوجههم الوجهة التي تناسبهم وإذا كان كل واحد قد غرز فيه من التصرف الكلي، فلا يفرض في غالب العادة من غلبة البعض عليه، فيرد التكليف عليه معلما مؤدبا في حالته التي هو عليها<sup>١٠٠</sup> فيتعين على الناظرين فيهم الالتفات إلى تلك الجهات فيراعونهم بحسبها ويراعونها إلى أن تخرج على أيديهم على الصراط المستقيم ويعينونهم على القيام بها ويعرفونهم على الدوام فيها، حتى يبرز كل واحد فيما غلب عليه ومال إليه من تلك الخطط<sup>١٠١</sup> ثم يدمجون في الحياة المهنية لينضموا إلى صفوف المحترفين، ويفيدون غيرهم، ويشاركون في إدارة دواليب الآلة الاقتصادية الإسلامية وتنمية بلادهم. فعند ذلك ينتهض الطلب على كل مكلف في نفسه من تلك المطلوبات بما هو ناهض به وعند ذلك يحصل الانتفاع وتظهر نتيجة تلك التربية<sup>١٠٢</sup>

### التربية الأخلاقية الجمالية

كلمة خلق في اللغة تفيد معنى السجية والطبع والعادة، واصطلاحا يراد بها تلك الحالة الراسخة للنفس التي تصدر عنها الأفعال من غير حاجة إلى فكر وروية.

وكلمة خلق وحدها لا تعني الأخلاق الحسنة، لأنها تحتمل المعنيين الحسن والقبيح، فعند المدح يوصف الخلق في لغة العرب بأنه حسن أو كريم، وقد وصف الله عز وجل محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم بقوله {وإنك لعلى خلق عظيم}

و حددت كل كتب التربية الإسلامية أن من مهام التربية تجويد أخلاق المتعلم وإكسابه الأخلاق الحسنة الفاضلة وإخراج الأخلاق السيئة منه، حتى شبه بعضهم عمل المربي بعمل الفلاح بقوله (ومعنى التربية يشبهه عمل الفلاح الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ربحه)<sup>١٠٣</sup>

<sup>١٠٠</sup>الموافقات ج ١ ص ١٧٩

<sup>١٠١</sup>الموافقات ج ١ ص ١٨٠

<sup>١٠٢</sup>الموافقات ج ١ ص ١٧٩ و ١٨٠

<sup>١٠٣</sup>الغزالي، أبو حامد. إيها الولد. تحقيق قره داغي. القاهرة. دار الاعتصام. ١٩٨٣ ص ١٢٨

لم يخصص الشاطبي في كتابه الموافقات فصولاً للحديث عن الأخلاق كالفصول التي خصصها للحديث عن العلم وحدود المعرفة وما يتصل بها من أحكام. فالموافقات كتاب في أصول الشريعة وليس كتاب وعظ أو فقه معاملات.

في الموافقات يؤسس الشاطبي كل الأحكام على أساس أصولي، القرآن في الدرجة الأولى، ثم السنة في الدرجة الثانية، بعدها تأتي الأصول الأخرى.

واستناداً على الأصلين الأولين، حاول الشاطبي وضع وعرض المعايير الإسلامية التي يمكن التفريق على ضوءها بين الخلق الحسن والخلق السيء، للإعلاء من الأخلاق الحسنة والحط من شأن الأخلاق السيئة.

والأخلاق عند الشاطبي ليست غاية في حد ذاتها، بل هي وسيلة خادمة للأصل الضروري، محققة لمصالح الدين والدنيا الأساسية التي يترتب عن الخلل فيها خلل في نظام الحياة كله. وهي المسماة بالحقوق الخمسة التي بينها الشرع<sup>١٠٤</sup>.

فلا يجب أن يتعارض خلق من الأخلاق مع هذه المصالح أو يؤدي إلى خلل في واحد منها لأن ذلك يلبس قسم الضروريات لبسة الحرج والعنت ويضيق على المكلف ما وضعته الشريعة في الشعائر الدينية من سعة وبسطة، وتسبب له في حرج، ولا يبقى معها خصال معاني العادات ومكارم الأخلاق موفرة الفصول مكملة الأطراف. وهذا ما لا يستحسنه أهل العقول بل يتعارض مع الشريعة والرسالة الإسلامية التي بنيت على التكليف بالوسع وعلى رفع الحرج وعلى مكارم الأخلاق<sup>١٠٥</sup>.

وفي تصنيف المقاصد رتبها الشاطبي في طبقات ثلاث: طبقة الضروريات ثم الحاجيات ثم التحسينيات وقال بعد تعريف هذه المقاصد وترتيبها إن مجموع الحاجيات والتحسينيات ينتهض أن يكون كل منها كفرد من أفراد الضروريات، وذلك أن كمال الضروريات من حيث هي ضروريات إنما يحسن موقعه حيث يكون فيها على المكلف سعة وبسطة من غير تضيق ولا حرج وحيث يبقى معها خصال معاني العادات ومكارم الأخلاق مكملة الأطراف موفرة الفصول، حيث يستحسن ذلك أهل العقول<sup>١٠٦</sup>.

---

<sup>١٠٤</sup>الموافقات ج ٢ ص ٢٤

<sup>١٠٥</sup>الموافقات ج ٢ ص ٢٣

<sup>١٠٦</sup>الموافقات ج ٢ ص ٢٣



وإذا أخل بذلك لبس قسم الضروريات لبسة الحرج والعنت، واتصف بضد ما يستحسن في العادات وصار الواجب الضروري متكلف العمل وغير صاف في النظر الذي وضعت عليه الشريعة وذلك ضد ما وضعت عليه. وفي الحديث ( بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ) فكأنه لو فرض فقدان المكملات لم يكن الواجب واقعا على مقتضى ذلك. وذلك خلل في الواجب ظاهر، أما إذا كان الخلل في المكمل للضروري واقعا في بعض ذلك، وفي يسير منه بحيث لا يزيل حسنه ولا يرفع بهجته ولا يغلق باب السعة عنه فذلك لا يخل به وهو ظاهر<sup>١٠٧</sup>

وفي تعريف المصالح التحسينية، يقول عنها إنها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المدلسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق، وهي جارية فيما جرت فيه الأوليات.

ففي العبادات كإزالة النجاسة وبالجملة الطهارة كلها وأخذ الزينة والتقرب بنوافل الخيرات من الصدقات والقربات وأشباه ذلك.

وفي العادات كآداب الأكل والشرب ومجانبة المآكل النجسة والمشارب المستخبثات والإسراف والإقتار في المتناولات.

وفي المعاملات كالمنع من بيع النجاسات وفضل الماء والكأ وسلب العبد منصب الشهادة والإمامة وسلب المرأة منصب الإمامة وإنكاح نفسها وطلب العتق وتوابعه في الكتابة والتدبير وما أشبهها.

وفي الجنايات كمنع قتل الحر بالعبد أو قتل النساء والصبيان والرهبان في الجهاد.

فهذه الأمور راجعة إلى محاسن زائدة على أصل المصالح الضرورية والحاجية، إذ ليس فقدانها بمخل بأمر ضروري ولا حاجي، وإنما جرت مجرى التحسين والتزيين<sup>١٠٨</sup>

والجمال يكون في الأخلاق والتركيب والمظهر والبنية. وكما دعى الإسلام إلى مكارم الأخلاق وحث على التمسك بها، فإنه دعا إلى الاهتمام بالجانب الجمالي في الحياة الإنسانية وفي عاداته وعباداته. وأمر بالعبادة

<sup>١٠٧</sup>الموافقات ج ٢ ص ١٢

<sup>١٠٨</sup>الموافقات ج ٢ ص ١٢

بمظهر المسلم والحرص على التجميل فيه وأخذ الزينة. وفي القرآن الكريم والسنة النبوية نصوص كثيرة ترشد إلى هذا.

والخلق يكون في الصورة وفي ترتيب الحلقة الباطنة والأفعال، وجمال الأفعال ملائمة لمصالح الخلق، وقاضية لجلب المنافع وصرف الشر عنهم<sup>١٠٩</sup> والإنسان قادر أن يجعل من أهدافه أن يكون جميلا في صورته من حيث نظافته وملبسه ومسكنه، فالجمال حسن الخلق أو الخلق أو الفعل، أو جميع هذه الصفات، تلحظ في الناس والأشياء وتبعث السرور في النفس.

فجمال الأخلاق كونها على الصفة المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة وكظم الغيظ.

وجمال الأفعال وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم .

وجمال الحلقة يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائما.

والإسلام علم الإنسان أن يبذل وسعه ليكون جميلا في مظهره وجوهره ومطعمه وملبسه ومسكنه<sup>١١٠</sup>.

في كتاب المقاصد وهو الجزء الثاني من الموافقات تكلم الشاطبي عن استفادة الآداب الشرعية من المعاني الثانوية لا من جهة الوضع بل من جهة التأسسي والتأديب بالقرآن، وبين ذلك على سبعة أوجه وهي:

١. أن القرآن أتى بالنداء من الله للعباد ومن العباد لله إما حكاية وإما تعلمًا. ونداء الله لعباده يكون مسبقًا بحرف النداء المقتضي للبعد، ثابتا غير محذوف، يفيد التنبيه. أما نداء العبد لله فقد جاء من غير حرف نداء ثابت لأن الله منزّه عن التنبيه، على أدبين:

(أ) أحدهما ترك حرف النداء.

(ب) الآخر استشعار القرب.

كما أن في إثبات الحرف في القسم الآخر التنبيه على معينين.

. إثبات التنبيه لمن شأنه الغفلة والإعراض والغيبة وهو العبد.

---

<sup>١٠٩</sup> محمود، عبد الحليم: تربية الناشئ المسلم. المنصورة. دار الوفاء، ١٩٩٢ ص ٣١٢

<sup>١١٠</sup> القرطبي: الجامع في أحكام القرآن ج ١٠ ص ٧١

. الدلالة على ارتفاع شأن المنادي وأنه منزه عن مناداة العبد.

٢. ونداء العبد للرب نداء رغبة وطلب لما يصلح شأنه، فأتى في النداء القرآني بلفظ الرب في عامة الأمر تنبيها وتعلينا لأن يأتي العبد في دعائه بالاسم المقتضى للحال المدعو بها. وذلك أن الرب في اللغة هو القائم بما يصلح المربوب.

٣. أتى في الكناية عن الأمور التي يستحيا من التصريح بها، كما كنى عن الجماع باللباس والمباشرة وعن قضاء الحاجة بالجيء من الغائط كما قال في نحوه {كانا يأكلان الطعام} فاستقر ذلك أدبا لنا استنبطناه من هذه المواقع.

٤. أتى فيه بالالتفات الذي ينبئ فيه القرآن عن أدب الإقبال من الغيبة إلى الحضور بالنسبة إلى العبد إذا كان مقتضى الحال يستدعيه، وكذلك إذا كان اقتضاه الحال.

٥. الأدب في المناظرة أن لا يفاجئ الرد كفاحا دون التقاضي بالمجاملة والمسامحة وذلك أدعى إلى القبول وترك العناد وإطفاء نار العصبية.

٦. الأدب في ترك التنصيص على نسبة الشر إلى الله تعالى، وإن كان هو الخالق لكل شيء في آيات كثرة.

٧. الأدب في إجراء الأمور على العادات في التسببات وتلقي الأسباب منها وإن كان العلم قد أتى من وراء ما يكون أخذا من مساقاة الترجيحات العادية. والترجي والإشفاق ونحوهما إنما يقع حقيقة ممن لا يعلم عواقب الأمور، فينبغي لمن كان عالما بعاقبة أمره . بوجه من وجوه العلم الذي هو خارج عن معتاد الجمهور . أن يحكم فيه عند العبارة عنه بحكم غير العالم، دخولا في غمار العامة، وإن بان عنهم بخاصية يمتاز بها، وهو من التنزلات الفائقة الحسن من محاسن العادات<sup>١١١</sup>.

## خاتمة واستنتاج

هذه التوجهات التربوية تحاول بناء منظومة تربوية على أسس أصولية مستمدة من التصور الإسلامي للشخصية المسلمة.

فالإسلام يتميز في تنميته لعناصر ومقومات الشخصية الإنسانية بنظرة شمولية متكاملة في جميع أبعادها العقلية والروحية والنفسية والأخلاقية والجسمية والاجتماعية، وهذه النظرة هي السائدة حالياً في علم النفس والتربية، وتجد سندها في نتائج أبحاث العلماء المعاصرين.

فالتربية المقاصدية كما شرحها الشاطبي تحقق أهدافا معرفية ووجدانية وسلوكية مهارية، تتوجه إلى البعد العقلي في الشخصية المسلمة فتجدد قنوات تشكيل هذا العقل وتتصدى لها بالتجديد والإصلاح، وتشحذ الذهن وتزوده بالوسائل التي تساعد على ترسيخ العقيدة الصحيحة وحماية سلامة الاعتقاد، وتقويه بالعمل الصالح المخلص لله النافع لعباده، وكذلك إلى البعد النفسي والبدني وسائر أبعاد الشخصية.

وبتمية هذه الأبعاد وتكاملها في شخصية الفرد تضع هذه التربية لبنة أساسية في إعادة تشكيل العقل المسلم وتجديد العقيدة الإسلامية والإسهام في تقوية بناء المجتمع الإسلامي حتى يقوى في مواجهة التحديات المختلفة.

إن قراءة كتاب الموافقات دلتنا على أن قضية التربية والتعليم كانت موضع اهتمام العلامة أبي إسحاق الشاطبي، الذي حرص على وضع أسس وقواعد للعملية التربوية التعليمية مستنبطة من الشريعة الإسلامية، مبينا حدود العلم وغايات التربية وشروط العملية التعليمية التي تخدم مقاصد الشريعة السمحاء.

كما أن كتابات الشاطبي التربوية، ليست مجرد مواظب دينية تسير في الاتجاه العام لكثير من الأدبيات التربوية الإسلامية، بل هي عمل أصيل يتميز بشمولية النظرة وعمق الفكرة وتكامل المباحث وتناسق الأفكار، مبنية على قواعد أصولية ثابتة ترمي إلى بناء نظرية تربوية إسلامية مؤسسة على قواعد الشريعة ومهتدية بهديها، معبرة عن أصالة وشمولية وواقعية الإسلام، تعكس نظرة الدين للإنسان ومصيره ووظيفته الاجتماعية ودوره في الحياة، وهذه التربية تستجيب لحاجات المجتمع الإسلامي التنموية وتتوافق مع هويته الدينية واللغوية والثقافية، وتقويه من مخاطر الاستلاب الحضاري.

ولعل الكاتب . عبر جولته المتواضعة في كتاب الموافقات . قد بلغ المراد في التعريف بما يتميز به الشاطبي من عقلية علمية أصولية تتصف بشموليتها واجتهادها وعبقريتها.

فما أحوجنا في سعيها نحو إصلاح بنائنا التربوي إلى تربية تسير على هدي ديننا وتثقيد بأحكامه، هذا الدين الذي اختاره الله خاتماً للديانات، صالحاً للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان . والحمد لله الموفق للصواب.

## المراجع

### الكتب

الأنصاري، فريد. كتاب: التوحيد والوساطة في التربية الدعوية. الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٩٩٥. [كتاب الأمة: ٤٧]

الجابري، محمد عابد. كتاب: بنية العقل العربي الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي / ١٩٩١

الجابري، محمد عابد. كتاب: التراث والحداثة الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي / ١٩٩١

الشاطبي، أبو اسحاق. كتاب الموافقات في أصول الشريعة بيروت: دار المعرفة / دون تاريخ

عباس، حسني محمد. كتاب: الفقه الإسلامي آفاقه وتطوره مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي / ١٤١٤ [دعوة الحق: ١٠]

الطبري، عبد الرحمن. كتاب: العقل العربي وإعادة التشكيل الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / ١٤١٣ [كتاب الأمة: ٣٥]

محمود، عبد الحليم. كتاب: تربية الناشئ المسلم المنصورة (مصر) دار الوفاء / ١٩٩٢

### الأبحاث

بنحمزة، مصطفى. بحث: مقاصد التربية الإسلامية؛ ألقى في الدورة الثانية للجامعة الصيفية للصحة الإسلامية ١٤١٢ الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. ١٩٩٤ [نشر ضمن أعمال الدورة]

بنسعيد، سعيدة وآخرون. بحث: الفكر التربوي عند الإمام الشاطبي: العافية، عبد القادر (مشرف) الرباط: مركز تكوين المفتشين / ١٩٩٣ [مخطوط باليد]

## الدوريات

مجلة المري: تطوان. المغرب - عدد ٤/١٩٩٤ بادو، عبد الجليل. مقالة: منهج التربية والتعليم عند الإمام الشاطبي. ص ٦

مجلة الفيصل: الرياض. عدد ٢٣٠/١٤١٦ بنمسعود، عبد المجيد. مقالة: تحرك القيم حول الكليات الخمس ص ٢٨

مجلة دعوة الحق: الرباط عدد ٢٨٠/١٤١١ حمود، محمد. مقالة: دور الاجتهاد في مواكبة المستجدات بالتطرق لمقاصد الشريعة ص ٨٠

مجلة دعوة الحق: الرباط. عدد ٢٩٧/١٤١٣ العافية، عبد القادر. مقالة: الفقيه الأصولي إبراهيم أبو إسحاق الشاطبي ص ٤٣

مجلة المنهل: الرياض. عدد ٥٢٦/١٤١٦ الدسوقي، محمد. مقالة: الفكر التربوي عند الإمام الشاطبي ص ٧٦

مجلة التبصرة (أكاديمية وجدة: المغرب) عدد ١/١٩٩٥ صوان، مصطفى. مقالة: محاولة بناء صنفاء تجسد المقاربة التكاملية ص ٨

ملحق الفكر الإسلامي جريدة العلم. الرباط: ١/١/١٩٩٣ حجيب، عبد العظيم. مقالة: مقاصد الشريعة عند ابن العربي: ص ٢

ملحق الفكر الإسلامي: جريدة العلم: ٤/١١/١٩٩٤ خولة، يوسف. مقالة: حمادي العبيدي وكتابه الشاطبي ومقاصد الشريعة ص ٦

ملحق الفكر الإسلامي: جريدة العلم: ١٣/٣/١٩٩٢ شكري، فريد. مقالة: طرق إثبات المقاصد الشرعية ص ٥

ملحق الفكر الإسلامي: جريدة العلم: ١٤/١٠/١٩٩٤ عاشور، مجدي. مقالة: عرض كتاب العبيدي: الشاطبي ومقاصد الشريعة ص

ملحق الفكر الإسلامي: جريدة العلم: ٢٥ ربيع الآخر ١٤١٣ العلمي، عبد القادر. مقالة: أصول الفقه  
والتجديد عند الشاطبي ص ٥



## المحتويات

٣	مقدمة
٣	أهمية البحث والحاجة إليه
٤	مشكلة البحث
٤	هدف البحث
٥	خطة البحث
٦	الفصل الأول
٦	تعريف موجز بالشاطبي وعصره
٧	الشاطبي: المصلح المجدد
١١	مقاصد الشريعة والتربية
١٥	أهمية وشمولية العبادة
١٧	الفصل الثاني.....
١٧	تجديد العقل المسلم.....
١٩	تصحيح المفهوم الخاطئة.
١٩	بناء المعقولية.....
١٩	مواصفات البرهانية.....
٢٠	تصنيف العلوم
٢٠	أقسام العلم.....
٢٢	أنواع العلوم.....
٢٤	بناء خطة تعليمية
٢٤	النظر المصلحي إلى التعليم.....
٢٥	وجوب التعلم على معلم.....
٣٠	ترتيب الدروس.....
٣١	التكوين والتوجيه.....

٣٣	النهوض بالاجتهاد
٣٤	درجات الترقى في العلم
٣٨	الفصل الثالث.....
٣٨	مقاصد الشريعة الغائية والعلوم الوسيطة.....
٤٠	التربية العقلية الإيمانية
٤٤	التربية المهنية الاجتماعية
٤٧	التربية الأخلاقية الجمالية
٥٢	خاتمة واستنتاج.....
٥٤	المراجع.....